



تاريخ حيفا

جميل حبيب البحري







تاريخُ حَيفَا

تأليف: جميل حبيب البحري

صدرت الطَّبعة الأولى منه عام ١٩٢٢
عن المكتبة الوطنية في حيفا

وزارة الثقافة الفلسطينية

سلسلة الموروث الثقافي

اسم المؤلف: جميل البحري

اسم الكتاب: تاريخ حيفا

الطبعة الأولى: ١٩٢٢ عن المكتبة الوطنيّة في حيفا

الطبعة الثانية: ٢٠٢٢

مراجعة وتدقيق: رشيد عِناية - نور عرفات

فلسطين

www.moc.pna.ps

تاريخ حيفا

تقديم

سيادة الرَّئيس محمود عبَّاس «أبو مازن»

لم تكن فلسطين ارضاً قاحلة، بل كانت ارضاً معطاءة وكان ابناؤها وبناتها مبدعين في الشعر والقصة والرواية والمسرح والموسيقى والسينما والعلوم الاجتماعية والفكر والفلسفة. ان هذه المكتبة من الكتب التي نعيد اصدارها تقدم باقة من هذه الابداعات التي تكشف عن عظمة هذا الشعب وحبه للثقافة والمعرفة.

كانت فلسطين تزخر بالمطابع والمكتبات والصحف والمجلات والمسارح ودور السينما والمراكز الثقافية والمدارس والمعاهد وكانت منارة يهتدي بها الآخرون، ويفدون اليها طلباً للعلم والمشاركة في الحياة الثقافية التي كانت تزدهر بها.

نعتز بموروثنا الثقافي الذي ابدعه اجدادنا، ونريد ان نحافظ عليه، ونريد للاجيال القادمة ان تقرأه وتعتز به وتبدع كما ابدع اسلافهم.

٣٠ / ٣ / ٢٠٢٠

مقدِّمة إيضاحيَّة

لما كان التبدل في حالة حيفا عمرانا وتجارة واديا، قد جملها بين أمهات المدن السورية عموما والفلسطينية خصوصا ولما كان لا يوجد بجد لها تاريخ باسط حالتها الماضية والحاضرة لدى الأدباء ورجال التاريخ، رأيت - وأنا أول حيفاوي كرَّس ذاته وأوقاته لخدمة الأدب فيها، بتأسيس المكتبة «الوطنية» وإنشاء المجلة «الزهرة» -ألا أقعد عن هذا الواجب الذي أعد نفسي أحق الناس بالقيام به، فعملت - بعد التفتيش والبحث ومراجعة الأسفار القديمة والحديثة التي لم أجد فيها والحق يقال ما بنقع غلة إلا اللهم بعض الذكر عن كثب أو التلميح تحت أسماء مختلفة بمرور فاتح عظيم بها كما أثبته هنا - على وضع هذا التاريخ، معتاضا فيه عن الماضي القديم الذي لم تلعب فيه دورا مهما، بالتوسع في الكلام عن حالتها وأهم ما كان فيها لسبعين سنة خلت إلى يومنا الحاضر. آملا أن يقع عملي هذا لدى الجميع موقع القبول وأن يقبلوا على مطالعته مطالعة الخبير النَّاقد ويتكرَّموا بمراجعتي بكل ما يرون فيه نقصًا في التاريخ ليحفظ عنهم مع الشُّكر والامتنان للطّبعة الثَّانية، ويبدوا رأيهم في المشروع إذا وجدوا لذلك مجالا؛ تنشيطًا لغيري ولي للإقدام على وضع غيره لغيرها من المدن الفلسطينيَّة، والله من وراء النيّات.

٣١ تمّوز سنة ١٩٢٢

«جميل»

تاريخ حيفا

حيفا مدينة حديثة العهد جدا، يرجع تاريخها بالرقي والعمران إلى تاريخ إنشاء السكة الحديدية الحجازية؛ أي إلى ما لا يزيد عن العشرين سنة تقريبا، وقد أضحت ميناء الداخلية كالشام وحوران وخصوصا الحجاز ونقطة المواصلة بين هذه الجهات والعالم الأوروبي، ساعدها على ذلك موقعها الذي أوجد لها مرفأها الطبيعي الأمين وهو خير مرسى وملجأ للسفن أوقات الزوابع والعواصف. وهكذا فقد تبدلت حالتها بسرعة مدهشة تبدلا محسوسًا. فبعد السكون والهدوء اللذين كانا مخيمين عليها سابقا إذ لا تجارة ولا صناعة ولا حركة حياة حتى ولا مدارس لنشر العلوم والمعارف وقد عرفت في كل أوقاتها مدينة صغيرة ضيقة النطاق قليلة عدد السكان ضيقة الشوارع، أضحت على ما هي عليه اليوم تعد بين أهم المدن الفلسطينية، بل وبين أزهر المدن السورية تجارة، بل ولا مزاحم تجاريا لبيروت عروس الشرق إلا هي. ولا تلبث أن تكون من أعاظم مرافئ البحر المتوسط خصوصا إذا اخرجت تلك الفكرة إلى حين العمل، وجعلت حيفا ميناء العراق والهند والشرق الأقصى.

وهي واقعة في سفح جبل الكرمل تجاه مدينة عكا من الجهة الجنوبية يفصل بينهما البحر الداخل في اليابسة المعروف بخليج عكا. وقد خصها الله بالمناخ الطيب والهواء العليل والمناظر الطبيعية الجامعة بين سماء صافية الأديم وبحر ساكن الأمواج وسهل خضر خصيب وجبل مكسو بالأزهار والرياحين.

اسمها

معناه المخفية أو المظللة ذلك لأن الكرمل الممتد جنوبيها يظللها، وقد ذكرت في الكتاب المقدس باسم اكشاف وكيفا وعرفت بعد ذلك باسم كلامون وقد دعاها الصليبيون بورفيريا الجديدة نسبة إلى ما كان يوجد على شواطئها من الأصداف التي منها كانت تؤخذ مادة الصباغ الأرجوانية أو البورفيرية ، ولا يزال هذا الاسم معروفا لها ومذكورا في أيامنا الحاضرة في النشيد الأسقفي لطائفة الروم الكاثوليك. وقد أردف إلى هذا الاسم كلمة «الجديدة» تمييزا لها عن بورفيريا التي ذكرها التاريخ واقعة على بعد ثمانية فراسخ من مدينة صيدا، والمهم في كل ذلك والمؤكد أنها لم تكن في ذات المحل الذي فيه أهم بناياتها وحيث موجودة الحركة التجارية اليوم بل كانت قائمة على مقربة من رأس الكرمل في المكان المعروف اليوم بحيفا القديمة غربي المستعمرة الألمانية. والآثار التي كشفت في الحفريات والتي لا تزال ظاهرة خير برهان على صحة القول حتى؛ ويوجد أثر تاريخي يعرفه الحيفاويون ببرج العجوز أو برج (الزَّوَره) وهو صخرة منتصبة على شاطئ البحر قيل إنها من بقايا برج حصين للمدينة القديمة.

تاریخُها

لم يـترك لهـا التاريـخ أثـرا في بطـون أوراقـه، كـما أن المؤرخـين ضربـوا صفحـا عـن ذكرهـا إلا تنويهـا تحـت أسـماء كـما قلنـا مختلفـة. ومـا السـبب في ذلـك إلا لأنَّهـا لم تلعـب في السـنين الغابـرة دورا كباقـي المـدن المجـاورة. إنمـا أقـدم مـا عـرف عنهـا أنهـا لمـا دخـل الإسرائيليـون أرض فلسـطين بقيـادة يشـوع بـن نـون وقسـموها بـين أسـباطهم الإثنـي عـشر كانـت مـن نصيـب أشـير اسـمًا، ولكنهـا فعـلا بقيـت محافظـة عـلى اسـتقلالها وقـد حـارب ملكهـا مـع الملـوك مجاوريـه الآتـين إليهـم ووقفـوا أمامهـم وقفـة مجيـدة. ويذكـر التاريـخ أن الإسرائيليـين ارتـدوا عنهـا وعـن الجليـل الأعـلى كـما أنهـم عجـزوا عـن دخـول مـدن سـاحل البحـر كلهـا.

سـنة ١٠٤ قبـل المسـيح جاءهـا ليـثرا بـن كليوبـترا ملكـة مـصر الـذي كان في قـبرص بعـد أن اضطهدتـه والدتـه وأنـزل جنـده وعددهـم ٣٠٠٠٠ لمسـاعدة بتولمائيـس (عـكا) عـلى رد اسـكندر بـن هركانـوس ملـك اليهوديـة عـن حصارهـا.

ملكها بعد ذلك الرُّومان، ولا أثر لها يُذكر في أيامهم.

سـنة ٦٣٨ للمسـيح في أوائـل الفتـح الإسـلامي اسـتولى عليهـا العـرب بقيـادة عمـرو بـن العـاص وبقيـت تحتكـم بأحكامهـم حتـى جاءهـا غودفـروا دي بويـون بطـل الحملـة الصليبيـة الأولى الـذي بعـد أن فتـح البـلاد الفلسـطينية وسـمي ملـك القـدس سـنة ١٠٩٩ جـاء وحاصرهـا بـرا وبحـرا مـدة خمسـة عـشر يومـا ثـم دخلهـا ظافـرا سـنة ١١٠٠ وسـلها إلى تانكـرد الـذي ولي أمـر

سـائر الجليـل وجعـل قاعـدة ملكـه مدينـة طبريـا. وعقيـب فتحهـا تـوفي غودفـروا دي بويـون في القـدس عـلى إثـر جـرح أصابـه في حملـة (قيـل) عـلى حيفـا . وكان سـقوط هـذه المدينـة آخـر انتصـار بـشر بـه قبـل وفاتـه.

سـنة ١١٨٧ اسـتولى عليهـا صـلاح الديـن الايـوبي بعـد انتصـاره الشـهير عـلى الإفرنـج في حطـين عـلى مقربـة مـن مدينـة طبريـا في الحملـة الصليبيـة الثانيـة.

سـنة ١١٩١ لمـا اسـتولى الصليبيـون عـلى جارتهـا مدينـة عـكا دمرهـا صـلاح الديـن حتـى لا يـترك للفاتحـين مـا يغنمـون وتركهـا قاعـا صفصفـا.

أمـا الصليبون فإنهم أعادوا بناءها وشـادوا بيوتها وأزهروا أعمالها.

وبقيـت تحـت إمرتهـم بموجـب المعاهـدة مـع صـلاح الديـن وبعـده مـع خلفائـه عـلى أن تكـون مـدن السـاحل مـن صـور إلى يافـا بيدهـم.

سـنة ١٢٥٠ حصنهـا (القديـس لويـس ملـك فرنسـا) مـع باقـي مـدن السـاحل. أمـا نزولـه في عـكا جارتهـا فـكان بهـذا التاريـخ وخروجـه منهـا سـنة ١٢٥٤.

سـنة ١٢٦٠ - ١٢٧٠ عانـت مـع باقـي مـدن السـاحل مشـقات وحروبـات ضـد الظاهـر بيـبرس البندقـداري سـلطان مـصر و بعـده ضـد خليفتـه قـلاوون.

سـنة ١٢٩١ اضطـر الصلـون إلى إخلائهـا في ٤ تمـوز كـما أنهـم أخلـوا في ذات الشـهر صـور وصيـدا وبـيروت وفي آب عتليـت (جنـوبي حيفـا) وقـد كانـوا في أيـار قـد ابتعـدوا عـن عـكا بعـد معـارك دمويـة نشـبت بينهـم وبـين سـلطان مـصر الأشرف (بـن قـلاوون) الـذي حمـل عـلى هـذه الجهـات حمـلات عنيفـة

بجحافله المؤلفة من ١٤,٠٠٠ مقاتل و٦٠٠٠ خيال؛ وعقيب هذه الحروبات كان جلاء الصليبين عن البلاد الفلسطينية.

سنة ١٥١٧ وقعت مع جارتها عكا في حوزة الأتراك في عهد السلطان سليم.

سنة ١٧٥٠ جاءها ضاهر العمر أمير عرب الزيادنة المقيم في صفد بعد أن استولى على سائر مدن الجليل، منها طبريا، سنة ١٧٣٨، وعكا سنة ١٧٤٩، ودكَّ حصونها، وهدم بيوتها جزاء معاملتها له، ولكنَّه ما عتم أن شيد مدينة غيرها داخل الخليج على بعد عشرين دقيقة شرقيها، وهي المدينة الحالية، وحوّطها بسور منيع بأبراج على جهاته الأربع، يحميها كلّها برج حصين معروف ببرج «أبو إسلام» قائم على رابية من الجبل مشرفة على المدينة، وأطلاله لا تزال باقية إلى أيّامنا يعرفه الأهلون بالبرج.

سنة ١٧٧٥ مرَّ بها محمد أبو الدّهاب قائد جيوش علي بك عزيز مصر بعد أن حرق دير الكرمل وذبح رهبانه، وكان قاصدا عكا، ولكنَّ المنيَّة عاجلته قبل إتمام عمله، وفي ذات السنة قُتِلَ ضاهر العمر، وتولّى بعده الجزَّار (الشَّهير).

سنة ١٧٩٩ أتاها نابليون بونابرت بجيوشه، فسلّمت إليه دون قتال، وكانت تحت إمرة الجزّار حاكم عكا، وأسر من مينائها سفينة إنجليزيَّة ملأى بالذَّخائر الحربيَّة، وجعل دير الكرمل مستشفى لجرحى الجنود الذين كانوا يصابون في حصر عكا، وأخيرا تركها راجعا إلى مصر بعد أن ارتدَّ أمام قلاع عكّا، ويوجد الآن أمام كنيسة الدَّير على قمَّة الجبل نصب

قائم فوق ضريح يضم عظام الجنود الذين تجندلوا في تلك المعارك.

سنة ١٨٣١ احتلَّها إبراهيم باشا بن محمد علي باشا نائب الملك بمصر، وجعلها مركزًا لقيادة جيوشه العامة، وكانت يومذاك بولاية عبد الله باشا عامل الأتراك.

سنة ١٨٤٠ جاء أسطول مؤلّف من دوارع إنجليزيَّة ونمساوية وتركيَّة وأصلاها نارا حامية وأحدث في أسوارها خللا كبيرا بعد أن سدَّ بقنابله فوّهات مدافعها التي أرادت ردَّه عنها (ولا تزال ترى هذه المدافع المسدودة ملقاة على شاطئ البحر) ثمّ سلَّمها إلى الأتراك.

سنة ١٨٩٨ جاءها الإمبراطور غليوم الثَّاني عاهل الألمان (الخليع حاليًّا) زائرًا وقد أقيم على قمَّة الجبل تذكارًا لهذه الزّورة، نصب، نُقِشَ عليه تاريخ زيارته، ولكنَّه هُدِمَ بعد الحرب العموميَّة.

سنة ١٩١٨، في ٢٣ من شهر أيلول، الساعة الثالثة بعد ظهر يوم الإثنين جاءها الحلفاء بجيوشهم المحتلّة، يقودها الجنرال اللنبي، ودخلها الإنجليز بعد مناوشة مدفعيَّة دامت أربعًا وعشرين ساعةً.

نظرةٌ عامَّةٌ بين ماضيها وحاضرِها

كانـت حيفـا لسـتين سـنة خلـت مدينـة ضيقـة النِّطـاق جـدًّا، محصـورة ضمـن سـور يصـل شرقًـا إلى المـكان المعـروف بالبوَّابـة الشرقيَّـة (حيـث مركـز الحركـة التِّجاريَّـة اليـوم) ومكتـب يوسـف بـك الخـوري وإخوانـه حاليًّـا قائـم فـوق مركـز بـاب المدينـة الكبـير الـذي كان يفتـح ويقفـل مسـاءً وصباحًـا، كـما هـي عـادة المـدن الحصينـة.

وغربًـا إلى ديـر اللاتـين والسَّـاحة المعروفـة اليـوم بسـاحة العربـات، كانـت بيـادر المدينـة خـارج السُّـور، وفي هـذه الجهـة كان للمدينـة أيضًـا بـاب كبـير آخـر نظـير البـاب الشرقـي. وجنوبـًا إلى الشَّـارع المعـروف اليـوم بالشَّـارع الجديـد وهـو خـارج مركـز السُّـور وشـمالًا إلى البحـر.

وهـذه الجهـات الأربـع التـي يعرفهـا جيِّـدًا والدونـا والأكـبر منّـا سـنًّا مـن الأهـالي كانـت أقـصى حـدود المدينـة.

سكّانها وأخلاقُهم ومعيشتُهم

لم يكـن يزيـد عـدد السـكان عـلى الثلاثـة آلاف نسـمة، النصـف مسـلمون والنصـف الآخـر مسـيحيون مـن الـروم الكاثوليـك؛ بينهـم نفـر قليـل جـدا مـن الـروم الأورثوذكـس ومثلـه مـن اللاتـين. يسـكنون كلهـم عـلى السـواء البيـوت ذات القناطـر المبنيـة بالـتراب الأبيـض، وهـي أشـبه الأشـياء ببيـوت سـكان القـرى في أيامنـا الحـاضرة، ويعيشـون جنبـا إلى جنـب عيشـا بسـيطا رخيـا هنيئـا رائدهـم السـلام وقائدهـم الاتحـاد والوئـام. شـيوخهم يسـهرون عـلى بنيهـم بـين العنايـة والرعايـة و يديـرون أمورهـم ويعنـون بـكل المسـائل المتعلقـة بالحاكـم والأحـكام وشـبانهم يحترمـون شـيوخهم ويحلـون آراءهـم أكـبر محـل ويسـمعون كل كلمـة يقولونهـا كـما أنهـم يطيعـون في كل أمـر.

لا هـم لهـم إلا القيـام بأشـغالهم الخصوصيـة ثـم قضـاء باقـي الأوقـات بالهنـاء والـسرور مؤلفـين فرقـا متفرقـة (كانـت تسـمى صرب أو صربـة) يعـين لـكل منهـا رئيـس (شـيخ الشـباب) وأمـين صنـدوق ووكيـل أعـمال الغرفـة أو البيـت الـذي يسـتأجرونه لاجتماعاتهـم المقتـصرة عـلى الزهـو والتسـالي والانـشراح، وهـذه الفـرق هـي أشـبه الأشـياء بجمعياتنـا اليـوم، ومـا الفـرق إلا أن هـذه تعنـي بالأمـور السياسـية أو الادبيـة أو الاقتصاديـة إلى غـير ذلـك وتلـك لا علـم لهـا بـشيء مـن هـذه الأمـور.

أمـا ملابسـهم فكانـت عـلى الإطـلاق الـسروال مـن الكتـان أو (الزريقـة - المضـام) أو الجـوخ والصـدرة (المعروفـة بالمنتيـان والدامـر) وعـلى رؤوسـهم الطربـوش المغـربي. ومـما يذكـر أن لـكل مقامـه في الهيئـة الاجتماعيـة، فأكابـر القـوم والشـيوخ لهـم الكلمـة المسـموعة وفي مجالسـهم يكـون الشـاب متأدبـا متهيبـا محترمـا كـما أن متوسـط الحـال لم يكـن لينظـر إلى الأغنـى منـه نظـر

المتشبه فيعيش عيشه أو يلبس لبسه وكذلك الفقير فقد كان مقتنعا بحالته وحافظا مركزه.

ومن طبعهم قديما وحديثا الوداعة واللين وحب السلام والقيام بالواجب عليهم نحو رؤسائهم ولكن إذا مست عزة نفوسهم، أو أهين جانبهم أو شعروا من غريب حطا بكرامتهم تراهم يهبون للأخذ بثأرهم غير صابرين على الضيم أو غامضين على القذى ولا يسكتون إلا بعد أن يكونوا أعطوا خير درس لمن تحرَّش بهم أيًّا كان، ومهما كان مقامه في الهيئة الاجتماعيَّة.

الأشغال

لا تجارة تُذكَر في حيفا، ولا صناعة، فكان البعض يفلح الأرض، والبعض الآخر يشتغل بالبحر مسلّمًا ما يزيد من من محصولات البلاد إلى المراكب الشِّراعيَّة الرُّوميَّة لقاء ما كانت تحمله إليهم من القيشاني والملح أو غيره ممَّا كانت المدينة في حاجة إليه من محصولات الخارج. وغيرهم كانوا محترفين حرفة الحياكة، وشغل الأحذية، والباقون ملازمون حوانيتهم في سوقهم الصَّغير الهادئ الحركة إذ لا وارد إليه ولا صادر منه حتَّى ولا غريب يقصده للتِّجارة، كما أنَّه لم يكن ثمَّة مجال لعربات السَّفر والنُّزه المالئة المدينة اليوم، والسيَّارات لم تُعرَف إلَّا مؤخرًا مدَّة الحرب العموميَّة.

أمَّا السُّفن البخاريَّة، فإنَّها بالطَّبعِ لم تأتِ ميناءها إلا بعد أن حدث التَّغيير في حالتها التِّجاريَّة.

العُلوم

كانت حيفا مكتفية بمكتب صغير للمسلمين في جامعهم، ومدرسة للمسيحيِّين في كنيستهم، يقوم الشَّيخ أو الشَّمَّاس الذي هو الرَّئيس والنَّاظر والأستاذ، بتلقين الصِّغار مبادئ القراءة العربيَّة وبعض سور القرآن عند المسلمين، والرَّسائل والأكطويخوس ومزامير داود عند المسيحيِّين. وعندما ينتهي التِّلميذ من هذه الكتب يعتبر منهيًّا دروسه، فيرسل إلى والديه باحتفال كبير ليعنيا بأمر تعليمه الكتابة على أحد كتبة دار الحكومة أو التجار. وهكذا فإنَّه لم يشتهر فيها أديب، ولم يخرج لهذا التَّاريخ منها كاتب، ولم يسبق أن اشتغل أحد الحيفاويين بالأدب.

حكومتُها

كان أحد كبار سكَّانها يتسلَّم زمام أمورها تحت اسم «المتسلِّم» ويكون ممثِّلًا للحكومة، ومرجعه المتصرفيَّة عكّا، ثم عيّنت مديرية، وبعدها قائمقاميَّة يتساعد الحاكم مع القاضي وشيوخ البلدة على استتباب الأمن والسَّكينة مع نفر قليل من الجند الوطنيّ.

التَّبدُّل فِي حالِها

لمَّا استتبَّت السَّكينة في البلاد بعد أن كانت مطمح أبصار الفاتحين والغزاة. قسَّمت الحكومة التُّركيَّة أراضي حيفا مناصفة بين أهليها، فكانت الجهة الغربيَّة سهلًا ووعرًا من نصيب المسيحيِّينَ، والجهة الشَّرقيَّة للمسلمين، ثمَّ بتمادي الأيام لمَّا أمن الأهلون وتأكَّدوا أنَّ الأراضي أضحت ملكهم المشروع، لا ينازعهم عليها منازع، طمحوا إلى تكبير دائرتهم، وتوسيع نطاق أعمالهم نافضين عنهم غبار خمول تسكَّعوا تحته طويلًا، وأخذوا بالتَّتابع يشيِّدون البيوت على السّور المحيط بالمدينة، ثمّ تعدّوه بعد ذلك من كلِّ جهاته. وما هي إلا بضع سنوات حتَّى وُجِدَت في المدينة حركة لم تُعهَد فيها من قبل، وشاد الرّهبان الكرمليُّون المقيمون على رأس الكرمل ديرهم وكنيستهم الرّعويَّة على باب المدينة الغربيّ، ثمَّ جاءتها راهبات النَّاصرة وشدنَ ديرهنّ على شاطئ البحر بحدود ملك الدّير غربًا. وقبيل حرب السّبعين الفرنساوية – الألمانيَّة، ابتاع مستعمرو الألمان الأراضي الواقعة على بعد عشر دقائق إلى الغرب، وأسَّسوا لهم فيها مستعمرة أتقنوا بناءها وهندستها، ونظّموا شوارعها، وجعلوا في وسطها شارعًا كبيرًا يمتدّ على خط مستقيم من شاطئ البحر حتَّى الجبل ترتفع على جهاته الأشجار الباسقة الأغصان، المنسّقة التَّرتيب، بينها أروقة جميلة، وممرَّات تحتاطها الزّهور العطريَّة.

وفي سنة ١٨٩٨ لمَّا جاء عاهل الألمان الإمبراطور غليوم الثَّاني بني على الشَّاطئ على مستوى الشَّارع الكبير المخترق المستعمرة رصيف لنزوله (والرّصيف المعروف اليوم بالبونط والمستعمرة المعروفة بالكولونية هما متنزه حيفا). وكان شغل المستعمرين بادئ بدءٍ فلاحة الأرض وزراعتها،

ولا يـزال هـذا العمـل شـغل القسـم الكبـير منهـم، ثـمّ تعاطـى بعضهـم أعـمال التّجـارة واسـتيراد محصـولات ألمانيـا وبيعهـا في أسـواق بلادنـا، هـذا والأهلـون وقـد زاد عـدد الغربـاء بينهـم مـن عـرب وإفرنـج، أخـذوا يبنـون البيـوت الجميلـة واصلـين المدينـة بالمسـتعمرة، كـما أنَّهـم لم يقعـدوا عـن تشـييد المسـاكن الكبـيرة عـلى الجبـل إلى جنـوبي المدينـة، ثـمَّ تعـدّوا بعـد هـذا وذاك إلى المركـز القديـم لحيفـا، وإلى قمـة الجبـل، وبنـوا فيهـا أيضًـا وغرسـوا في هـذا المحـل الأخـير أحـراش الصنوبـر، وخططـوا بينهـا الطرقـات وعبدوهـا، حتـى أضحـى خـير مـكان يؤمـه المصطافـون اتّقـاءً مـن حـرارة الشـمس المحرقـة (والمـكان معـروف باسـم السـت نسـبة إلى سـيدة إنجليزيـة كانـت شـادت أوّل بيـت فيـه) ثـمّ كـثرت الأديـرة وفُتِحَـت المـدارس الأهليَّـة والأجنبيَّـة لتلقـين الأولاد صبيانًـا وبناتًـا مبـادئ العلـوم الصحيحـة.

أمَّـا في الجهـة الشرقيَّـة فلـم يكـن الأهلـون أقـل اجتهـادًا مـن جيرانهـم، فتعدوا السـور أيضًـا، وبنـوا البنايـات الشَّـاهقة، ثـمَّ جـاءت شركـة إنجليزيَّـة وابتاعـت أرضًـا عـلى بعـد عـشر دقائـق إلى الـشَّرق؛ سـعيًا وراء مـدّ خـطّ حديـدي يسـهل المواصـلات مـع الداخليـة، ولكـن هـذا المـشروع لفـت أنظـار الحكومـة التُّركيَّـة بأيَّـام السـلطان عبـد الحميـد الثَّـاني، فأخذتـه عـلى عاتقهـا وشـادت في حيفـا محطَّـة كبـيرة جعلتهـا مركـز مديريـة السِّـكَّة الحجازيَّـة التـي مـدَّت خطوطهـا إلى الحجـاز وإلى شـمالي سـوريا، وهكـذا سـهّلت كلّ مواصلـة مـع الدَّاخليَّـة، وابتـدأت حيفـا بحيـاة لهـا جديـدة، وقـد لفتـت أنظـار العـالم إليهـا، فجاءهـا التُّجَّـار والمتموِّلـون، وأسَّسـوا فيهـا المحـلَّات التِّجاريَّـة والمصـارف، وكذلـك البواخـر والسُّـفن، فإنَّهـا صـارت ترسـو في مينائهـا بأوقـات معينـة،

وجعلت لها وكالات خصوصية. كما أنَّ الدُّول الأوروبيَّة أرسلت من يمثلها فيها أمام الحكومة المحليَّة (كقناصل ووكلاء قناصل) ثمَّ أضحت محطّ رحال الحجاج في العالمين المسيحي والإسلاميّ، يأتيها الأولون لزيارة مغارة النبي إيليا على رأس الكرمل، ويذهبون منها إلى النَّاصرة وطبريا والقدس، والأراضي المقدّسة، والآخرون بوساطة السكَّة الحجازيَّة يؤدّون فريضة الحجّ.

وقد زاد على حركتها التِّجاريَّة حركة جديدة، وصول الخطّ الحديديّ العريض إليها من مصر بُعَيْدَ الحرب العموميَّة سنة ١٩١٨.

وزبدة القول، لقد تبدَّلت حالة حيفا تبدُّلًا محسوسًا، وأضحت اليوم غيرها في الماضي القريب، والتّحسُّن فيها والتَّقدُّم لا يزالان باطِّراد.

حَيفا اليَوم

هـي مدينـة متَّسـعة الأطـراف، تصـل غربًـا إلى رأس الكرمـل، وشرقًـا إلى نهـر المقطـع، وشـمالًا إلى البحـر، وجنوبًـا إلى قمَّـة الجبـل.

أمَّـا شـوارعها فـلا تـزال في وسـط المدينـة ضيّقـةً. أمَّـا فيـما شـيد مـن البيـوت خـارج موقـع السُّـور قديمًـا، فالشَّـوارع أكـثر اتّسـاعًا وأنظـم تنسـيقًا.

سُكَّانُها

لم يجـرِ بعـدُ إحصـاءٌ رسـميٌّ، إنَّمـا تقـدِّر الحكومـة المحليَّـة أنّ عـدد السُّـكَّان حسـب مـا تمكَّنـت مـن معرفتـه بتعديـل عـدد الطَّوائـف المختلفـة كـما أُخبِرنَـا رسـميًّا (٣٤,٠٠٠) أربعـة وثلاثـون ألـف نسـمة، تُقسَـم هكـذا: المسـلمون ١٦,٠٠٠، والمسـيحيّون ١٣,٠٠٠، منهـم ٥٠٠٠ مـن طائفـة الـرّوم الكاثوليـك، و١٠٠٠ مـن الـرّوم الأرثوذكـس، و١٠٠٠ مـن الموارنـة، و٧٠٠ مـن اللّاتـين، و٣٠٠ مـن الإنجيليِّـين، والباقـون مـن الأجانـب (إنجليـز وفرنسـاويين وألمانيـين إلى غير ذلـك) أمَّـا اليهـود فمجمـوع عددهـم ٥٠٠٠ نسـمة، بمـا في جميـع المهاجريـن الذيـن أتى بهـم وعـد بلفـوة إلى حيفـا. يعيشـون كلّهـم بوفـق وسـلام، منهمـك التَّاجـر بتجارتـه، والعامـل بعملـه، والصَّانـع بصناعتـه، والكاتـب بحسـاباته، والمأمـور بالقيـام بوظيفتـه. إنَّمـا التَّنافـر واقـع بـين الوطنيِّـينَ (المسـلمين والمسـيحيِّينَ) وبـين اليهـود (الصهيونيـين) مـن جـراء وعـد بلفـور (في ٢ تشريـن الثَّـاني سـنة ١٩١٧) الجاعـل فلسـطين وطنًـا قوميًّـا لليهـود. وقـد أدَّى هـذا الوعـد بالوطنيِّـينَ إلى إقامـة تظاهـرات كبـيرة جـرت السّـنة الماضيـة، والتـي قبلهـا؛ احتجاجًـا عـلى هـذا الوعـد الـذي عـدَّه الوطنيُّـون حكـمًا جائـرًا بحقِّهم.

وآخـر تظاهـرة كانـت في اليـوم الثَّامـن والعشريـن مـن شـهر آذار سـنة ١٩٢١، حـصرت فيهـا الحكومـة المسـلمين بوسـاطة رجـال الـدّرك، ضمـن جامعهـم الكبـير، وطـاردت المسـيحيين الذيـن كانـوا خارجـين مـن احتفـال ثـاني يـوم عيـد الفصـح الكبـير مـن كنيسـة الـروم الكاثوليـك؛ لينضمّـوا إلى المسـلمين، وقـد أطلـق في هـذه الأثنـاء قائـد رجـال الـدّرك النَّـار فأصـاب فتـى مسـيحيًّا في الرَّابعـة عـشرة مـن عمـره (إدوار بـن جريـس منصـور) أرداه قتيـلًا، وكذلـك رجـلًا عجـوزًا مـن المسـلمين (مصطفـى العجـوز) ومـن ثـمَّ مُنِعَـت التظاهرات، واكتفـى الأهلـون بالاحتجـاج شـفهيًّا وكتابـةً وبوسـاطة الـبرق والصّحـف.

ومـما يُلَاحـظ أنَّ هـذا الوعـد وهـذه السِّياسـة بحـقّ فلسـطين نبّهـت شـعور سـكَّان حيفـا إلى تتبُّـع مجـرى السِّياسـة، حتَّـى أضحـى الكبـير منهـم والصَّغـير يتحـدَّث بهـا في مجتمعاتـه الخصوصيَّـة والعموميَّـة، بيـد أنَّـه لم يكـن ليفقـه لهـا معنـى مـن قبـل الحـرب العموميَّـة.

أمَّـا عوائـد الحيفاويـين اليـوم، فقـد أضحـى القسـم الكبـير منهـم يتمثَّـل بالأوروبيِّـين رجـالًا ونسـاءً إنْ بالمعيشـة البيتيـة أو بالحيـاة الاجتماعيَّـة أو باللِّبـاس الإفرنجـي؛ حتَّـى بعضهـم بالقبّعـة، ولكـنّ غطـاء الـرَّأس عـلى العمـوم هـو الطّربـوش النّمسـاويّ الطَّويـل الـذي يلبسـه رجـال تركيـا.

والقسـم الأكـبر وهـو المسـلمون (إلَّا نفـر قليـل منهـم) ورجـال العمـل أي العـمال مـن المسـيحيين، لا يـزال يلبـس الـرّداء (المعـروب بالقمبـاز أو الصـاي). الشّـيوخ يحبّـون المحافظـة عـلى التَّقاليـد القديمـة، والشـبَّان ينزعـون إلى تقليـد كلّ شيء جديـد وإلى التشـبُّه بـكل غريـب يرونـه (حتَّـى بعضهـم

بحلق الشَّوارب) وكلّهم على الإطلاق مسيحيّون ومسلمون يحبّون الزّهو والانشراح والتَّنزُّه، وتراهم قبيل الغروب بعد أن ينتهوا من أشغالهم؛ يقصدون المتنزّهات لترويح النَّفس، وخصوصًا في يومي السَّبت والأحد؛ ولهذا كثرت أماكن الصُّور المتحرِّكة، والمسارح العموميَّة، والقهاوي، والحانات، ويأتيها من وقت إلى آخر أجواق مصريَّة لتمثيل الرِّوايات التي أضحى إقبال الأهلين عليها كبيرًا.

حكومتها

هي مركز منطقة فينيقيا، تضمّ إليها قضاءها الأصليّ على زمن تركيا، وكذلك مدينة عكا، وقضاءها، وستكون قريبًا على ما عُرِفَ مركز قضاء فينيقيا والجليل في النَّاصرة وطبريا وصفد، وكلّ ما يجاورها من المدن والقرى.

تولَّى حكومتها منذ الاحتلال باسم بريطانيا العظمى الجنرال كينج، وهو أوّل حاكم للمدينة، أقام فيها يومين، تبعه المأجور أرامسون مدَّة ثلاثة أيَّام فقط، ثمَّ جاء الكولونيل ستورس حاكم القدس حاليًّا، وبعده بالوكالة المأجور نوت، ثمّ الكولونيل ستانتون باشا، وأخيرًا في أوَّل تمّوز سنة ١٩٢٠ الكولونيل سايمس، وهو حاكمها الحاليّ.

حالتها الدينية

في المدينة كما سبق وقلنا، ثلاث ملل معروفة؛ الإسلاميَّة والمسيحيَّة واليهوديَّة، وتوجد ديانة جديدة أضحى أمرها اليوم معروفًا وهي البهائيَّة.

أمَّا المسلمون فلهم جامعان لإتمام فرائضهم الدّينيَّة، واحد يُعرَف بالجامع الكبير، الكائن في وسط المدينة، والثَّاني الجامع الصَّغير، على بعد دقيقتين منه إلى الشَّرق، ولهم مقام الخضر يؤمّونه للزِّيارة، وهو واقع عند أقصى حدّ المدينة إلى الغرب في سفح جبل الكرمل، وهو في اعتقادهم مقام الملاك جبرائيل، ومنهم من يقول إنَّه مدرسة الأنبياء، أمَّا في اعتقاد المسيحيِّينَ فهو مدرسة النّبيّ إيليا.

أمَّا المسيحيُّون فلكلّ طائفة كنيستها الرّعويَّة بإدارة كهنتها وقسسها، وهي مركز مطرانيَّة لطائفة الرّوم الكاثوليك، ومطرانها الحاليّ المقيم دائمًا فيها سيادة الحبر العلامة غريغوريوس حجَّار رئيس أساقفة (متروبوليت) عكا وحيفا والنَّاصرة وسائر الجليل، وكذلك لكلّ دير من أديرة الرّهبانيَّات المتعدِّدة كنيسة تُقام فيها فروض الدِّيانة، ولهم أيضًا مقام النَّبيّ إيليا، وهو المعروف بدير مار الياس على رأس الكرمل على بعد ٤٥ دقيقة من المدينة فيها المغارة التي كان النّبيّ يتردَّد إليها حال وجوده على الأرض، وهو مزار تاريخيّ يأتيه المسيحيّون للزِّارة من أقطار العالم.

أمَّا اليهود فلهم كنيسهم، ولا مقام دينيّ تاريخيّ لهم للزِّيارة.

تبقى البهائيَّة التي أتينا على ذكر تاريخها بالتَّفصيل في كتابها (عبد البهاء عباس والدّيانة البهائيَّة). فللبهائيِّين في حيفا مقام الباب أصل ديانتهم، وقد أُتِيَ برفاته من بلاد الفرس سنة ١٩٠٨، ووضعت في محل شادوه في منحدر جبل الكرمل، وضعت إلى جانبه جثَّة عبد البهاء عبّاس الزَّعيم الأكبر الذي تُوُفِّي في ٢٨ من شهر تشرين الثَّاني سنة ١٩٢١، ويقدّسون هذه المدينة أيضًا؛ لأنَّها أوّل أرض داسها البهاء والد عبد البهاء صاحب الدّيانة البهائيَّة في هذه الدّيار، سنة ١٨٦٨، ومنها اقتيد إلى مكان أسره في عكا.

وحيفا كانت المرجع الأعلى للعالم البهائيّ بحياة الزعيم الأكبر عبد البهاء عبّاس، أمَّا اليوم فالزّعامة بتنازع بين حزب المتوفَّى الذي أسندها أفراده إلى شوقي أفندي حفيد عبد البهاء من ابنته مدَّعين أنّ وصيَّة الفقيد تنصّ على ذلك، وبين محمد علي أفندي (السَّاكن في قصر البهجة في ضواحي عكّا) أخ عبد البهاء، وابن صاحب الشَّريعة، وهو يدَّعي حقّ الزَّعامة حسب وصيَّة البهاء والده، ولا ندري ماذا يكون من أمرهم في المستقبل.

حالتها التِّجاريَّة

كانت تجارة حيفا في زهو وتطور وتوسُّع مطَّرد، ولكنّ هذا المركز قد تضعضع أخيرًا من جراء الفصل بين سوريا وفلسطين، ووضع الحواجز الجمركيَّة. فيها تجار الحبوب خصوصًا، وهي تعدّ مستودع هذا الصّنف لفلسطين وحوران. وتجّار مال القبال والمانيفاتورة وتجار العمولة (الكوميسيون). تشحن أغلالها إلى أوروبا، كما أنَّها تستورد منها من أميركا ومصر وسائر أقطار العالم البضائع التي تحتاج إليها البلاد.

أُسِّسَت فيها في أوّل تموز سنة ١٩١٩ غرفةٌ تجاريَّة، تُعنى بالحالة الاقتصاديَّة كلّ العناية، وتسهِّل أعمال التِّجارة للأهلين، وتمثِّلهم أمام الحكومة في كلّ مخابرات ومراجعات في صالح التِّجارة بوساطة الأعضاء الاثني عشر (النصف مسلمون والنِّصف الآخر مسيحيُّون) الذين ينتخبهم قانونًا التُّجَّار مرَّة كل سنتين مع رئيس لها؛ وكان رئيس الغرفة التّجاريَّة في السنتين الأوليين الوجيه يوسف بك الخوري، ورئيسها الحالي بموجب الانتخاب الخير السيد أبو الخير الموقع.

ويعقد أعضاء الغرفة التِّجاريَّة جلساتهم مرَّة كلّ أسبوع، يقتصر البحث فيها على التِّجارة وفروعها ومطاليبها لحيفا. أمَّا مقرّراتهم فيسجلها كاتم الأسرار الملازم الغرفة دائمًا، وينفّذ ما هو للتَّنفيذ منها.

وقد برهنت أعمالها لهذا التَّاريخ على غَيْرَةِ الأعضاء ونشاط القائمين بإدارتها الذين لم يألوا جهدًا في سبيل مخابرة الحكومة وملاحقة المراكز الإيجابيَّة لتسهيل أعمال التِّجارية وحريَّة إصدار الحبوب التي تزيد

عـن الأهلـين، وكذلـك السِّـكَّة الحديديَّـة وإدارة الجمـرك والمهاجـرة والسّـفر ووكالات البواخـر وإدارات البريـد والـبرق والتّلفـون؛ لتسـهيل أشـغال التُّجَّـار.

وقـد كانـت هـذه الغرفـة بـادئ بـدء مؤلَّفـة مـن المسـلمين والمسـيحيين واليهـود، ولكـنَّ الأخيريـن انسحبوا منها مـن مـدَّة؛ لأنَّهـم لم يُلَبَّـوْا إلى طلبهـم بتعيـين مـع كاتـم الأسرار معاونًـا منهـم لاسـتعمال اللُّغـة العبريَّـة، وأسَّسـوا لأنفسـهم غرفـة خاصَّـة اعترفـت بهـا الحكومـة المحليَّـة رسـميًّا.

وقـد عُقِـدَ في حيفـا بنـاء عـلى طلـب الحكومـة مؤتمـر تجـاريّ في ٣٠ تشريـن الثَّـاني سـنة ١٩٢١، حـضره فخامـة المنـدوب السَّـامي الـسر هربـرت صموئيـل، ومديـر التِّجـارة العـام في فلسـطين وممثلـو تجـار سـائر المـدن؛ حيـث مثَّـل تجـار حيفـا في هـذا المؤتمـر السَّـادة أبـو الخـير الموقـع وعبـد اللـه مخلـص ورشـيد الحـاج إبراهيـم وتوافيـل بوتاجـي وميخائيـل تومـا.

ودلالـة عـلى حركـة حيفـا التِّجاريَّـة، وحتَّـى تكـون للقـارئ الكريـم فكـرة فيهـا، نذكـر هنـا مـا بلغـت واردات الجمـرك وصادراتـه حسـبما عرفنـاه رسـميًّا مـن حـضرة مديـر الجمـرك الخواجـة سـليم الحـداد، وذلـك في السـنتين اللتـين تبتـدئ الأولى منهـما في شـهر آذار سـنة ١٩١٩، وتنتهـي في آذار سـنة ١٩٢٠، والثانيـة في آذار سـنة ١٩٢٠، وتنتهـي في ذات الشـهر مـن سـنة ١٩٢١. فمجموع واردات الجـمارك في السـنة الأولى ١,٦٢٧,٣٨١ وصادراتـه٢٧٠,٠٥٧ مـن اللّـيرات المصريَّـة، وفي الثَّانيـة ٢,٠٢٣,٥٩٤ وصادراتـه ١٩٣,٠٧١ لـيرة مصريّـة. أمَّـا السّـنة الأخـيرة التـي تنتهـي في آذار مـن السّـنة الحاليَّـة فلـم تتـم بعـد ميزانيَّتهـا.

حالتها السِّياسيَّة

بفضل الجمعيتين الإسلاميَّة والمسيحيَّة - رئيس الجمعية الإسلامية فضيلة مفتي حيفا الشيخ محمد مراد ورئيس الجمعية المسيحية الوجيه فؤاد بك سعد - اللتين شُكِّلَتا على إثر الاحتلال، أضحت الحركة السياسيَّة، أو بالحريّ، الوطنيَّة، مما ينظر إليها بعين الاهتمام، وآراء حيفا وأفكارها ومقرراتها لتعدّ بين آراء أوليات المدن الفلسطينيَّة أمام الحكومات، وقد جاهدت ولا تزال تجاهد ضدّ وعد بلفور الشهير، كما أنَّ أول مؤتمر فلسطيني رسميّ عام مثّل جميع طبقات الشعب من سائر جهات فلسطين، وأقرَّت به الحكومة أنّه يتكلّم بلسان الشَّعب عمومًا عُقِدَ فيها من ١٣ إلى ١٩ من شهر كانون الأوّل سنة ١٩٢٠، وهو المعروف بالمؤتمر الفلسطيني الثالث، العام الذي ترأسه موسى كاظم باشا الحسيني (من القدس) وكان نواة العمل والحياة للأمَّة، وفيه انتُخِبَت اللَّجنة التَّنفيذيَّة الأولى لتنفيذ مقرَّرات المؤتمر والإشراف على الحالة في فلسطين، وتمثيل أهليها أمام الحكومة، وقد جعلت مركزها الرئيسي في القدس، وقد شُكِّلَ هذا المؤتمر باقتراح الأستاذ العلّامة الشيخ سليمان التاجي الفاروقي من الرملة، وقد اشترك به من سكان حيفا فضيلة المفتي الشيخ محمد مراد والسادة عبد الله مخلص وأبو الخير الموقع وأمين نور الله ومعين الماضي وأحمد الغمام ورشيد الحاج إبراهيم ورفيق بك التميمي من المسلمين، وإبراهيم صهيون وإسكندر منسي ورجا بك الرئيس ونجيب نصار ووديع البستاني وتوافيل بوتاجي وتوفيق الجدع وكاتب هذه الأسطر من المسيحيين.

وكذلك أرسلت حيفا من يمثلها في المؤتمر الفلسطيني الرّابع الذي عُقِدَ في القدس في ٢٥ أيار سنة ١٩٢١ برئاسة أيضًا موسى كاظم باشا الحسيني، فحضره من حيفا حضرة المفتي الشيخ محمد مراد، والسادة عبد الله مخلص، ورفعت بك الصلاح، ومعين الماضي، وأحمد الإمام، ورشيد الحاج إبراهيم، ورفيق بك التميمي من المسلمين، وفؤاد بك سعد ونجيب نصار وتوافيل بوتاجي وقسطندي مدور وكاتب هذه الأسطر من المسيحيين. وقد انتُخِبَ في هذا المؤتمر الوفد الذي ذهب إلى أوروبا برئاسة رئيس المؤتمر نفسه في ١٩ تموز سنة ١٩٢١؛ وبعضوية كل من السادة توفيق أبو حماد وأمين بك التميمي من نابلس، ومعين بك الماضي من حيفا، وإبراهيم شماس من القدس، وشبلي الجمل من يافا، وهو السكرتير؛ وذلك لمعالجة القضية الفلسطينية والدِّفاع عن حقوق الأهلين أمام دوائرها، وهو لا يزال هناك في لندن يجاهد ويناضل.

أمَّا الحكومة المحليَّة فإنَّها تعتبر الجمعيَّتين ممثلتين للوطنيين من مسيحيين ومسلمين وتفاوضهما وتخاطبهما بكلِّ ما له علاقة بالمدينة.

حالتها الأدبيَّة

المدارس

إنَّ هـمَّ كلّ رهبانيَّـة تـأتي حيفـا، فتـح المـدارس لأبنائهـا صبيانـا وبناتـا، وتعليمهـم مبـادئ العربيـة والفرنسـيَّة، وأمـور ديانتهـم، وهكـذا تعـدَّدتِ المـدارس بتعـدُّد الأديـرة؛ أهمّهـا مدرسـة إخـوة المـدارس المسـيحيَّة للصبيـان، ومدرسـة راهبـات المحبّـة، وراهبـات النَّـاصرة للبنات، كما أنَّ المسـلمين حسّـنوا مدرسـتهم الابتدائيـة، وطائفـة الـرُّوم الكاثوليـك شـادت سـنة ١٩٠٤ مدرسـة وطنيَّـة كبـيرة ضمَّـت ولا تـزال تضـمّ بـين جدرانيهـا لا أقـلّ مـن ٣٠٠ تلميـذ (لمّـا كان لإنشـاء هـذه المدرسـة أهميَّـة كـبرى في تطـوّر حيفـا الأدبيّ، وضعـتُ لهـا تاريخًـا عـلى حـدة، يبحـث في سـبب تشـييدها وكيفيَّـة سـيرها معَ أهـمّ مـا طـرأ عليهـا لوقتنـا الحـاضر) ثـمّ حـذت حذوهـا الطَّائفـة المارونيَّـة، وكذلـك الـرّوم الأرثوذوكـس، وكـذا فقـد أضحـى العلـم قريـب المتنـاول عـلى حيفـا، وأضحـى عـدد المـدارس فيهـا اليـوم ٣٠ بـين مـدارس للصّبيـان والبنـات، منهـا ٣ للمسـلمين، و١٧ للمسـيحيِّينَ، و١٠ لليهـود.

فلـو عدّلنـا عـدد الطّلبـة في كلّ مدرسـة ٢٠٠ فقـط (لأنَّ منهـا مـا يزيـد عـن هـذا العـدد ومنهـا مـا يقـل) لـكان عـدد الذيـن يتعلّمـون ٦٠٠٠ بأقـلّ تعديل.

أمَّـا هـذه المـدارس فكلّهـا أجنبيَّـة إلَّا المـدارس الطَّائفيَّـة المذكـورة أعـلاه، فإنَّهـا وطنيَّـة أهليَّـة محـض، يُـصرَف عليهـا مـن جيـوب الأهلـين، ولغتهـا الرَّئيسـيَّة هـي اللُّغـة العربيَّـة، وقـد أخرجـت ولا تـزال تخـرج شـبّانًا أدبـاء شـغلوا

أهـمّ مراكـز المدينـة، فمنهـم الأديـب التَّاجـر، والكاتـب، والصَّانـع، وموظَّـف المصـارف، والسـكَّة الحديديَّـة، ودائـرة الحكومـة، وغـير ذلـك.

أمَّـا اللُّغـات التـي تُـدَرَّس في المـدارس اليـوم فهـي العربيَّـة والإنجليزيَّـة والفرنسـيَّة، وعنـد اليهـود العبريَّـة، ومنهـا مـا تكتفـي باللُّغتَـيْنِ العربيَّـة والإنجليزيَّـة. وتوجـد مدرسـتان تزيـد عـلى الثّـلاث لغـات المذكـورة اللُّغـة الإيطاليَّـة، وثـلاث أخـرى الألمانيَّـة، أمَّـا العبريَّـة فـلا تُـدَرَّس إلا في المـدارس اليهوديَّـة مـع الإنجليزيَّـة وأخـيرًا العربيَّـة.

المكاتب

لم تعـرف حيفـا قبـل سـنة ١٩١٤ مكتبـة عموميَّـة، فكانـت المـدارس تـأتي بمـا هـي في حاجـة إليـه رأسًـا مـن مكاتـب بـيروت وأوروبـا، ولكـن سـنة ١٩١٤ اهتـمّ الخواجـة يوسـف فـارس آصـاف بتأسـيس مكتبـة تحـت اسـم (المكتبـة الجامعـة) ولكنَّهـا لم تلبـث أن أقفلـت وأوقفـت تمامًـا أعمالهـا، ثـمَّ أرسـلت بضاعتهـا بعـد ذلـك إلى بـيروت بسـبب اضطـرار صاحبهـا اللّبنـانيّ الأصـل إلى النّـزوح إلى مسـقط رأسـه كـسروان.

ومـا وضعـت الحـرب العموميَّـة أوزارهـا حتَّـى رجـع إلى إعـادة تأسيسـها بشراكـة كاتـب هـذه الأسـطة في أيّـار سـنة ١٩٢٠، ثـمّ انفـرد بهـا كاتـب هـذه الأسـطر مـع أخيـه حنّـا، وبـدَّل عنوانهـا باسـم (ألمكتبـة الوطنيَّـة) في ١ كانـون الثَّـاني سـنة ١٩٢١، وهـي اليـوم المكتبـة الوحيـدة في حيفـا، كـما

أنَّها أوَّل مكتبة يقوم بها حيفاوي، تُعنى ببيع الكتب المدرسيَّة والعلميَّة والتَّاريخيَّة والأدبيَّة والدَّواوين الشِّعريَّة، باللُّغات العربيَّة خصوصًا، والفرنسيَّة والإنجليزيَّة، وكلّ ما يلزم المدارس والتُّجَّار من الأدوات الكتابيَّة، وهي تستورد بضاعتها من بيروت ومصر وأوروبا، وقد بدأت بإيجاد لها مطبوعات خصوصيَّة، كما أنَّها أنشأت مجلَّتها «الزّهرة» وهي عازمة على إيجاد نادٍ تجعل في الكتبَ والجرائدَ والمجلَّاتِ خدمةً للأدب؛ ولتسهيل المطالعة على الأدباء.

ويوجد في المدينة محلَّات مسيحيَّة ويهوديَّة تُعنى ببيع الأدوات الكتابيَّة فقط، ولوازم التُّجَّار، ومنها ما تبيع الكتب العبريَّة أو الإنجليزيَّة.

الجمعيَّات والنَّوادي

عدا الجمعيَّتين المسيحيَّة والإسلاميَّة اللَّتين مرَّ بنا الكلام عنهما في الحالة السِّياسيَّة، وعدا الجمعيَّات الطَّائفيَّة الخيرية والأخويّات الدّينيَّة الكثيرة العدد، توجد في حيفا جمعيَّة الشَّبيبة المسيحيَّة (رئيسها الشَّاب الأديب السيد أديب الجدع، وأُعيدَ تأسيس هذه الجمعيَّة في ١٧ تشرين الثَّاني سنة ١٩١٩، بموجب ترخيص من الحكومة المحليَّة، وهي الجمعية نفسها التي كانت معروفة قبل الحرب باسم نهضة فتيان الروم الكاثوليك، وقد أوقفت سيرها الحرب التي شتَّتَتْ شمل أعضائها) وهي أدبيَّة تدور مباحثها في اجتماعاتها حول الأمور الأدبيَّة، وتمثِّل من وقت إلى آخر الرِّوايات ذات المغازي الحسنة، العائدة بالنَّفع على الجمهور.

وتوجـد جمعيَّـة السـيِّدات (مسـيحيَّة) وكذلـك جمعيَّـة تهذيـب الفتـاة (إسـلاميَّة).

وقد تأسَّست أخيرًا جمعيَّة من بعض الموظّفين الإنجليز والوطنيِّين لتعزيز اللُّغة الإنجليزيَّة.

وكذلك أُسِّسَت جمعيَّة النَّهضة الاقتصاديَّة العربيَّة، وغايتها كما هو معروف في قانونها إنهاض البلاد علمًا وتهذيبًا وتعليمًا واقتصادًا وأخلاقًا، والعمل بكلّ ما يعود عليها بالخير والنَّفع؛ متذرِّعة لذلك بما تبلغه وسائل الجمعيَّة وأعضائها من الجهد (السيد نجيب نصار صاحب جريدة الكرمل في حيفا هو أوَّل من نادى على صفحات جريدته إلى تأسيس هذه الجمعيَّة، وسعى مع نخبة من وجهاء البلدة ومحاميها ومفكِّريها وأدبائها وراء وضع قانون أساسيّ لها، صُدِّقَ من الحكومة، ثمّ أُقيمَتِ الحفلة الافتتاحيَّة في ٢٢ شباط سنة ١٩٢٢، وباجتماع آخر عامٍّ في ١٦ آذار سنة ١٩٢٢، جرى انتخاب الهيئة الكليَّة لسنة واحدة، وعدد أعضائها سبعة، وهم السادة: نجيب نصّار، ووديع البستاني، والقس صالح سابا، ومحمد علي بك التميمي، وعبد الله مخلص، ورشدي الشوّا، وتوافيل بوتاجي، ثمّ سمَّت هذه الهيئة الخواجة ميشيل جريس الخوري سكرتيرًا لها) ولها الحقّ بموجب نصّ قانونها أن تشكّل هيئات كليَّة في المدن والحواضر وهيئات جزئيَّة في القرى تربطها جمعيًا لجنة عليا ينتخبها المؤتمر الذي يُعقَدُ بعد تنظيم هذه الهيئات، وقد بدأت بتشكيل نقابات لكلّ مهنة وصنعة وفنّ، ومن جملة هذه النَّقابات (حلقة الأدب) وغاية هذه الأخيرة تعزيز اللُّغة العربيَّة وتشجيع فنّ الخطابة، والنَّظر في كلّ

نقيصة من نقائص مجتمع حيفا الأدبيّ وإصلاحه، وكذلك التَّعليم البيتيّ ونشر الكتب الأدبيَّة، ولا تقبل بين أعضائها العاملين إلَّا حملة الأقلام والخطباء، ومن مارس فنّ الأدب نثرًا ونظمًا، والفخر بين الذين يميلون إلى الأدب وينشطونه؛ علمًا أنَّ فكرة تأسيس هذه الحلقة تمخَّضت بادئ بدء في رأس الكاتب المعروف الخواجة توفيق زيبق واستشار بأمرها الأدباء أصدقاءه، فاستحسنوا فكرته ونشطوه، ولكنهم أمهلوه إلى أن تأسَّست جمعيَّة النهضة الاقتصاديَّة العربيَّة، فباشروا وهم السَّادة توفيق زيبق المذكور، ورفيق بك التميمي، والدّكتور قيصر الخوري، وأديب الجدع، ويوسف الخطيب، وعبد الرحمن رمضان، وكاتب هذه الأسطر، بتأسيس هذه الحلقة، وسنّوا لها نظامًا في جلسة تمهيديَّة عُقِدَت في ٢٨ نيسان سنة ١٩٢٢.

أمَّا النَّوادي فلا يوجد منها في حيفا بعدُ إلَّا واحد أسَّسته السِّكَّة الحديديَّة لموظَّفيها ولغيرهم من أدباء القوم.

والسّعي اليوم حثيث لإيجاد ناد وطنيّ عموميّ، وقد أُسِّسَ أخيرًا نادٍ بعنوان «النَّادي الكاثوليكي وقد دشَّنه غبطة بطريرك الطائفة ديمتريوس الأول في ٣ تموز سنة ١٩٢٢ الذي كان بزيارة رعوية في حيفا بحفلة شائقة أقامها مؤسسو النادي وحضرها عدا غبطة البطريرك سيادة غريغوريوس حجار مطران الأبرشيَّة العكاويَّة وسيادة باسيلبوس الخوري مطران يبرود، وتوابعها والرؤساء الروحانيّون، وجمع كبيرٌ من الأهلين.

وقام بهذا النَّادي نخبة من شبّان طائفة الروم الكاثوليك أدباء وموظّفين

وعمّال، وشادوا بهمَّة جديرة بالتَّسجيل، وبظرف أسبوع واحد فقط محلًّا رحبًا واسعًا جميلَ الهندسةِ كاملَ المعدَّات في الجهة الغربيَّة في أحسن بقعة من أراضي حيفا تخصّ وقف الطَّائفة؛ غايته التأليف بين القلوب وتوحيد الكلمة، وإيجاد للرِّجال محلًّا يمكّنهم أن يعتاضوا به عن المحلَّات العموميَّة كالقهاوي والحانات والمسارح غير الأدبيَّة.

المطابع

أوَّل مطبعة أُتِيَ بها إلى حيفا هي المطبعة الوطنيَّة لباسيلا الجدع سنة ١٩٠٨، ثمَّ جاءت بعدها مطبعة جريدة الكرمل سنة ١٩٠٩ لنجيب نصار، ثم تبعها بعد ذلك مطابع جريدة النفير لإيليا زكا وغيرها لليهود؛ حتَّى أضحى عدد محلات الطباعة اليوم ٨؛ أربعة منها للوطنيين، ومثلها لليهود، ولا يوجد غير هذه المطابع في كل ما جاور حيفا من المدن كعكا والنَّاصرة. أما في طبريا فتوجد مطبعة صغيرة لليهود، ومثلها في صفد.

الصُّحُف

يصدر في حيفا اليوم أربع جرائد ومجلَّة، وكلُّها عربيَّة، وهذه أسماؤها:

١- الكرمل

جريـدة عربيَّـة تصـدر مرَّتـين في الأسـبوع لصاحبهـا السـيِّد نجيـب نصَّـار، واشـتراكها في فلسـطين ١٢٥ غرشًـا مصريًّـا، و١٥٠ في الخـارج.

أُنشِـئَت سـنة ١٩٠٩، وتوقَّفـت مـدَّة أربـع سـنوات الحـرب الكـبرى، وعـادت إلى الصُّـدور بعدهـا في بـدء سـنة ١٩٢٠، وهـي اليـوم في سـنتها التاسـعة التـي ابتـدأت سـنة ١٩٢٢، وقـد بلـغ مجمـوع أعدادهـا لهـذا التَّاريـخ ٨٣٠ عـددًا.

أمَّـا موادُّهـا فغزيـرة، ومباحثهـا تـدور حـول الوحـدة العربيَّـة، وكتاباتهـا بهـذا الشَّـأن شـهيرة، وقـد عالجـت القضيَّـة الفلسـطينيَّة معالجـة أكسـبت صاحبهـا اسـم أب فلسـطين، خصوصًـا وهـو أوَّل مـن لفـت الأنظـار إلى الصّهيونيَّـة وأخطارهـا، وقـد وضـع لهـا كتابًـا طبعـه قبـل الحـرب.

٢- النَّفير

جريـدة عربيَّـة تصـدر يـوم الخميـس مـن كلِّ أسـبوع لصاحبهـا السـيِّد إيليـا زكّا، واشـتراكها في فلسـطين ١٠٠ غـرش مـصريّ، و١٢٥ في الخـارج.

أُنشِـئَت في الإسـكندرية سـنة ١٩٠٢، حيـث صـدرت مـدَّة يوميًّـا، وبعدهـا انتقلـت إلى يافـا حيـث صـدرت مـدَّة سـنة واحـدة، وبعدهـا إلى القـدس، ثـمَّ إلى حيفـا سـنة ١٩١١، وكانـت نصـف أسـبوعيَّة، ثـمَّ توقَّفـت أيَّـام الحـرب

وعـادت إلى الظُّهـور في ٢٣ أيلـول ١٩١٩، وهـي اليـوم في عامهـا الحـادي عـشر، ومجمـوع مـا صـدر منهـا مـن الأعـداد ٢٩١٣.

مباحثهـا اجتماعيَّـة محليَّـة سياسـيَّة، وخطتهـا اليـوم وطنيَّـة، ولهـا في خدمـة البـلاد وقفـات جليلـة.

٣- الطَّبل

جريـدة عربيَّـة تصـدر يـوم الإثنـين مـن كلّ أسـبوع؛ لصاحبهـا السـيِّد إبراهيـم محمـد كريـم، واشـتراكها السَّـنويّ ١٢٥ غرشًـا مصريًّـا في فلسـطين، و١٥٠ في الخـارج.

أُنشِـئَت سـنة ١٩١٩ في الشَّـام، وصـدرت فيهـا مـدَّة سـنة واحـدة، ثـمَّ اضطـرّ صاحبهـا إلى الابتعـاد بسـبب الحـوادث التـي كانـت بـين الملـك فيصـل والفرنسـيين، وصـدرت في حيفـا مـدَّة شـهرين، وأوقِفَـت، وبعدهـا صـدرت في القـدس مـدَّة عـشرة أشـهر، ورجعـت بعدهـا إلى حيفـا، حيـث محـلّ صدورهـا الآن، وهـي اليـوم في عامهـا الثَّالـث، وقـد بلـغ مجمـوع مـا صـدر مـن أعدادهـا ١٧٧.

الجريـدة فكاهيَّـة سياسـيَّة، وكثـيرا مـا تُلبِـسُ الجـدَّ لبـاس الهـزل لمغـازٍ وطنيَّـة أو أمـور شـخصيَّة.

٤- السَّلام

جريـدة عربيَّـة يهوديَّـة تصـدر مـرَّة في الأسـبوع، لصاحبهـا نسـيم ملـول (يهـودي) واشـتراكها ١٠٠ غـرش في حيفـا، و١٢٥ في الخـارج، وهـي اليـوم في عامهـا الثَّالـث، ومجمـوع مـا أصـدر مـن أعـداد ٧٦.

مبحاثهـا اجتماعيَّـة وسياسـتها صهيونيَّـة بـكلّ معنـى الكلمـة، عـلى رغـم ادِّعاء صاحبهـا أنَّـه يهتـمّ للتَّقريـب بـين الوطنيِّـين والصّهيونيِّين.

وعـرف أخـيراً أن قـد أوقفـت أعمالهـا لحصـول صاحبهـا عـلى وظيفـة في القـدس.

٥- الزّهرة

مجلَّـة أدبيَّـة روائيَّـة أخلاقيَّـة تاريخيَّـة فكاهيَّـة تصـدر مرَّتـين في الشَّـهر، لصاحبهـا كاتـب هـذه الأسـطر. اشـتراكها ٦٠ غرشًـا مصريًّـا في فلسـطين، و٧٥ في الخـارج، وتقـع في أربعـين صفحـة مـن القطـع الكبـير.

أُنشِـئَت هـذه المجلَّـة في ١ أيـار سـنة ١٩٢١ باسـم زهـرة الجميـل، وكان عـدد صفحـات العـدد ٣٢ صفحـة (أي ٧٦٨ صفحـة في السـنة) وقطعهـا صغـير، وموادهـا روايـة مسـتقلة، وروايـة متتابعـة مـع بعـض أدبيـات وقصائـد وفكاهـات تتخللهـما.

أمَّـا في سنتها الثَّانيـة فقـد جعلـت اسـمها (الزّهـرة) وكـبرت قطعهـا، وجعلـت صفحاتهـا أربعـين في كلّ عـدد (أي ٩٦٠ صفحـة في السَّـنة) وأصـدرت عـددًا ممتـازًا سـميته معـرض الأفـلام، وجمعـت فيـه نفثـات لحملـة الأقـلام في

فلسـطين، ثـمَّ أكملـت بتقسـيم كلّ عـدد إلى قسـمين؛ قسـم فيـه روايـة مسـتقلَّة، وقسـم ثـانٍ وهـو الأكـبر تحـت عُنـوان «معـرض الأقـلام» بثـث فيـه كتابـات وقصائـد لأشـهر الكتـاب والشـعراء، وكلّهـا تُكتَـبُ خصّيصًـا للزهـرة.

وهـي أوَّل صحيفـة أصدرهـا حيفـاوي. ومـما يُذكـر أنَّ رواياتهـا وكتاباتهـا عـلى الإطـلاق جديـرة بمطالعـة الشَّـابَّات والشُّـبَّان.

هـذه هـي الصُّحـف التـي لا تـزال تصـدر في حيفـا، أمَّـا مـا سـبق وصـدرت، فكثـيرة، منهـا مـا نُقِـلَ إلى غـير جهـات كالنَّفائـس، وهـي مجلَّـة أدبيَّـة لصاحبها السـيِّد خليـل بيـدس صـدرت مـدَّة سـنتين في حيفـا ثـمَّ نُقِلَـت إلى القـدس، وكذلـك جـراب الكـردي (جريـدة) فقـد كان أوّل صدورهـا في حيفـا لجميـل رمضـان وجانـا، ثـمّ انتقلـت مـن يـد إلى يـد، حتَّـى أصبحـت بـين أيـدي توفيـق جانـا في الشَّـام، وهاتـان الصّحيفتـان هـما أوَّل صحـف ظهـرت في حيفـا، حيـث ظهرتـا معًـا في ١ تشريـن الثَّـاني سـنة ١٩٠٨، وقـد ظهـر غيرهـا كجريـدة العصـا، وشـمندفر والصَّاعقـة والمحبّـة، وكلُّهـا صـدرت وقتًـا قصـيرًا وتوقَّفـت ولم يعـد لهـا أثـر.

حَيفا
في الحرب الكُبرى

لم أترك شيئًا حضرني عن حالة مدينة حيفا إن بتفتيش الأسفار القديمة أو بحفظ التَّقاليد المنقولة عن شيوخنا أو بما أعرفه شخصيًّا، إلَّا وأثبتُّه في هذا التَّاريخ، ولم يبقَ لي إلَّا كلمة صغيرة عن الحرب الكبرى التي كنت أرغب في عدم ذكرها؛ كي لا أعيد إلى القلوب تلك الذِّكرى المؤلمة لولا أنَّ التَّاريخ الظَّالم لا يشفق ولا يرحم، فهو يحفظها خير عظة للبنين عن الوالدين؛ فلذا أجد نفسي مضطرًا إلى عدم إغفالها؛ متحرِّيًا فيها سرد الحقائق على علاتها كما شهدتها بنفسي، وقد كان لكثير منها بعض التماس فيَّ، وكادت تودي بي إلى غيرِ هذا العالم.

أُعلِنَت الحرب العامَّة في أوائل شهر آب سنة ١٩١٤، وحمل البرق أخبارها إلى حيفا كما حملها إلى سائر أطراف المعمور، فتلقَّاها الحيفاويُّون بمزيد من الأهميَّة والاهتمام، وأضحوا يتتبَّعون أخبارها وسير مواقعها بلهفة عظيمة غير ساترين تشيُّع البعض منهم لفرنسا، والبعض الآخر لإنجلترا، والغير لإيطاليا، وروسيا، واليونان، والألمان، إلى غير ذلك من الدُّول المتحاربة حسب ما كانت تدفعهم إليه أهواؤهم وأميالهم، بل قل حسب ما غُذُّوه منذ الصّغر من حليب الميل والمحبَّة إلى هذه الدَّولة أو تلك.

وكأنّ عمال الدَّولة التُّركيَّة كانوا يرقبون من الأهلين هذه المظاهر بعين ساهرة، حتَّى خاضت تركيا بدورها غمار الحرب في ٢-٧ من شهر تشرين الثَّاني سنة ١٩١٤، فقاموا لما كانوا يرونه من الأميال، وقعدوا وأعلنوا على الشَّعب بغضًا قتّالًا، ساعدهم على تنفيذ مآربهم بعض رجال دولة ألمانيا (الحليفة) وبعض من الأهلين الذين كانوا يتزلَّفون لرجال هذه

وتلك خاطبين ودَّهم بأضرار غيرهم، خصوصًا أولئك (من حيفا وعكا) الذين وجدوها خير فرصة لإشباع مطامعهم، أو التشفّي لعداوة سابقة، أو لإظهار نفوذهم الشّخصيّ، فاتّهموا الأهلين بالتّفرنس والتأنجلز حتَّى وبالجاسوسيَّة، التي والحقُّ يُقالُ لا يعرف الحيفاويُّون منها إلَّا كلمتَها العربيَّة.

فعملوا على إيقاف بعض من طالت إليه أيديهم وسجنهم ونفي الكثيرون منهم إلى الأصقاع النَّائية غير مشفقين عليهم ولا راثين لحالة نساء وبنات وأطفال ينتظرهم الموت الأحمر ببعد رجالهم وآبائهم وأبنائهم. والذي كان يزيد في الطّين بلَّة زيارة بعض الدّوارع الإنجليزيَّة ميناء حيفا؛ لكشف تقوم فيه أو لغاية في نفوس رجال السِّياسة؛ أو لضرب المحلَّات الألمانيَّة والتُّركيَّة (كمستودع الكاز مثلًا الكائن على شاطئ البحر في أحد حد المدينة إلى الشرق. أو الطَّاحونة الألمانيَّة الموجودة على مقربة من محطَّة السِّكَّة الحديديَّة أو دار قنصلاتو ألمانيا الكائنة في الجهة الغربيَّة ملك الخواجة مراجل).

وكان في أثناء الضرب أو بعده يهتمّ رجال الحكومة بالتَّفتيش والقبض على من يشعرون منهم حركة ظانّين أنَّها إشارة للدّوارع حتَّى ومن يظنّون أنَّهم سرّوا ولو قلبيًّا بقدوم هذه الدَّوارع، فيزجّونهم في أعماق السُّجون، أو ينفونهم، وأكثر النَّاس اضطهادا في حيفا كانت في بادئ الأمر طائفة الرُّوم الكاثوليك على إثر صدور حكم المجلس العرفي (الغيابي) على أسقفها الأكبر سيادة المطران غريغوروس حجّار، الذي كان موجودًا في أوروبا فمصر، بالإعدام، متّهمين سيادته بأنَّه في خطبة له في فرنسا

حـرَّض الشَّـعب الفرنـسيّ عـلى محاربـة الأتـراك (بيـد أنّ سـيادته كان أعقـل مـن أن يجعـل أبرشـيَّته ورعيّتـه بمثـل هـذه المواقـف الحرجـة) فوضعـت الحكومـة اليـد عـلى أمـلاك الكـرسي الأسـقفي، وأمـلاك الكنيسـة المسـجَّلة عندهـا باسـمه، وأُمسِـكَ وكلاؤُه في عـكَّا وحيفـا، وأُبعِـدُوا إلى الشَّـام، وأُهِينَـت كهنتـه، وكان الباقـون عرضـة كل يـوم للسـوق إلى دار الحكومـة لتأديـة أجوبـة عـلى تهـم تُلقَـى عليهـم.

وقـد أُقفِلَـت المـدارس الأجنبيَّـة وحُجِـزَتِ الأديـرة واسـتُعمِلَت ثكنًـا أو مستشـفياتٍ عسـكريَّةً، كـما أنَّ الكنائـس الطَّائفيَّـة مُنِعَـت عـن قـرع أجراسـها كالعـادة.

كذلـك توقَّفـت أعـمال الجرائـد خـوف السُّـقوط بجملـة أو كلمـة تكـون القاضيـة عـلى أصحابهـا، خصوصًـا صاحـب الكرمـل الـذي مـا دخلـت الحـرب حتـى أُخِـذَت عليـه عربيَّتـه ومسـاعيه في جريدتـه بشـأن الوحـدة العربيَّـة ومسـاعدته المنتـدى الأدبيّ العـربيّ (الـذي شُـنِقَ رجالـه في بـيروت ودمشـق) كـما أنَّـه اتُّهِـمَ بقيامـه ضـدّ الاتحاديِّـين ومـوالاتـه لـدول التَّحالُـف (فرنسـا وإنجلـترا وروسـيا) فاضطُّـرَّ إلى التَّغيُّـبِ مـدَّة سـنتين وثمانيـة أشـهر في النَّـاصرة ومـرج ابـن عامـر وشرقـي الأردن، تحـت زيّ الفلَّاحـين والبـدو، ثُـمَّ بُرِّئَـت سـاحته عـلى أن يسـاعد عـلى تحريـر الـشَّرق في الشـام (جريـدة الجيـش).

نُفِـيَ الكثـيرون كـما قلنـا لتهـم تافهـة، أو لمجـرَّد فكـرة طـرأت عـلى بعـض رجـال الحكومـة بأنَّهـم سـوف يقومـون بمـا اتُّهِمـوا بـه. ولكـنَّ البعـض أُعلِنَـت أسـباب توقيفهـم، كأفـراد أسرَتَيْ أنطـون وجريـس زحـلان (وقـد لاقـى الأوَّل

منيتـه في دار المنفـى) فلقـد اتُّهِمَـت هاتـان الأسرتـان بأنَّهـما أخفتـا في بيتهـما المدعوّيـن (ميخائيـل الصّالـح وابـن غريـب مـن سـكَّان النَّـاصرة وقـد عرفـا آتيـين للتَّجسُّـس وأنزلتهـما دوارع الأعـداء في حيفـا، فأُلقِـيَ القبـض عليهـما في النَّـاصرة وسـيقا إلى الشَّـام حيـث نُفِّـذَ فيهـما حكـمُ الإعـدامِ). وكذلـكَ نُفِيَـت جميـع الأسر السَّـاكنة عـلى شـاطئ البحـر متَّهمـة أنَّهـا عرضـة للمخابـرة مـع مـن تخرجـه الـدَّوارع مـن الجواسـيس إلى الشَّـاطئ، وذلـك عـلى إثـر مـا عرفت الحكومـة مـن نـزول المدعـوّ ابـن دردس إلى الـبرّ في ليلـة كانـت جماعـة مـن النِّسـاء تسـتحمّ في البحـر، ورجوعـه بعـد ذلـك مـن حيـث أتى. وقـد تُـوُفِّي البعـض منهـم في المنفـى.

وقـد منـع عـلى إثـر هـذه الحـوادث التَّجـوُّل في شـوارع المدينـة ليـلا بعـد السَّـاعة العـاشرة إفرنجيَّـة، خصوصًـا المـرور عـلى شـاطئ البحـر بُعَيـد الغروب، كـما أنَّـه حُظِـرَ عـلى الأهلـين إشـعاع أنـوار المصابيـح في البيـوت؛ فلـذا كانـوا يضطـرون إلى سـدّ كلّ منفـذ يرمـي عـلى البحـر، أو قضـاء لياليهـم في الظلمـة المدلهمَّـة خوفًـا مـن أن ينبعـث نـور ولـو ضئيـل مـن شـقوق نافـذة أو بـاب لئـلَّا يذوقـوا مـن الأحـكام العرفيَّـة مـا هـم في غنـى عنـه.

أمَّـا الحادثـة المؤلمـة التـي كاد الأهلـون جميعًـا يشـتركون في ذوق مرارتهـا، هـي مسـألة كتـاب وُجِـدَ في البريـد، كلـه طعـن وقـدح وذم في حـقّ الحكومـة المحليَّـة، فـأرادت هـذه معرفـة الكاتـب، وأوقفـت في ٨ كانـون الثَّـاني سـنة ١٩١٦ الخواجـات حليـل صنـبر وابنــه وديـع، واسـكندر منصـور، وجريـس صهيـون، وميشـيل جـورج الخـوري، واليـاس رزق صهيـون، ثـمّ في ١١ مـن الشَّـهر ذاتـه نجيـب قشـقوش، وسـاقتهم إلى النَّـاصرة فالقـدس، حيـث حوكموا

أمـام الدِّيـوان العـرفيّ بعـد أن ذاقـوا مـن السِّـجن مـرارة، ومـن الـضَّرب أليـمًا. ولكـن لمَّـا لم يثبـت عليهـم شيء خصوصًـا، وكانـوا والحـقُّ يُقـال عـلى جهـل تـامٍّ بأمـر التُّهمـة الي سـيقوا وحوكمـوا لأجلهـا، سـاعد عـلى ذلـك كتـاب آخـر ظهـر في حيفـا بخـطّ كاتـب الكتـاب الأوَّل ذاتـه، فبُرِّئَـت سـاحتهم، بـشرط أن يُبعَـدوا إلى بـلاد الأناضـول (أنقـرة – كيرشـهر) وهكـذا صـار، وأُلحِـقَ بالمتزوِّجـين منهـم أفـراد أسرهـم (نسـاؤهم وأولادهـم) وبقـوا هنـاك إلى أن وضعـت الحـرب أوزارهـا.

هـذا وقـد كاد الكتـاب الثَّـاني يُلحِـق بكثيريـن مـن الحيفاويـين أذى كبـيرًا، وأقـلّ الأشـياء اتباعهـم بالأولـين؛ لـولا أنَّ العنايـة أرسـلت مـن أزاح الحاكـم العسـكري (قومنـدان الموقـع البيكبـاشي أحمـد شـكري الشَّـاميّ الأصـل) الـذي ناهيـك عـن هـذه الحادثـة التـي مسـكها بكلتـا يديـه، كان يسـعى وراء إيجـاد أو نبـش أقـلّ حركـة تسـوم الأهلـين الخـوان والـذُّلّ حتَّـى أصبـح مفزعتهـم؛ ولـذا حفـظ لـه الحيفاويُّـون أحسـن ذكـرى (والمـرء يُذكَـر بأعمالـه).

أُزِيـحَ إذن وأُتِيَ بحاكـم غـيره (جميـل بـك «تـركي») عـرف أنّ هـذه الأعـمال مـا كانـت إلَّا إشـباعًا لشـهوات بعـض مـن لا ذمَّـة لـه ولا ضمـير، فسـكت عـن الكتـاب الآنـف الذِّكـر، وهـدأت حـوادث السِّـجن والنَّفـي والاضطهـاد.

أمَّـا المعيشـة في حيفـا، فكانـت بالرّغـم عـن القـول بأنَّهـا الأهنـأ بـين كلّ مـدن سـوريا وفلسـطين، فقـد كانـت ضيقـة جـدًّا عـلى أهلهـا الذيـن عُرِفـوا بالتَّبذيـر وعـدم توفـير شيء لغدهـم، فتوقَّفـت أعمالهـم، وأُقفِلَـت محلَّاتُهـم، واضطـروا إلى الاختفـاء أو التَّسـليم للخدمـة العسـكرية، مـن ابـن ١٧ إلى ٥٠ سـنة.

لا ننكر أنّ الحبوب على الإجمال لم تُقطَع من حيفا أبدًا، حتّى أنّ سكان جبل عامل ولبنان كانوا يأتون لشراء ما يقتاتون به، ولكن أنّى من لا درهم بين أيديه ابتياع قوته اليوميّ وقوت عياله قمحًا كان أو ذرى لو شعيرًا، خصوصًا وهو متخفّ عن أنظار الجند أو بعيد عن أهله في الخدمة العسكريَّة؛ فلذا تمكَّن الأهلون في السَّنة الأولى من الوقوف قليلًا أمام هذه الضّربات (ومن جملتها ضربة الجراد الزَّاحف في آذار ونيسان سنة ١٩١٦) ولكن اضطروا في السَّنة الثَّانية إلى بيع جميع ما في بيوتهم من الأثاث والفرش، وما في أيدي وأعناق وآذان نسائهم من الحلي والأساور والعقود والأقراط الذهبيَّة؛ ليتساعدوا على هذه الحياة الصعبة.

أمَّا في الثَّالثة فرهنوا أو باعوا أملاكهم بأقلّ الأثمان وأبخسها، بقيم من الدّراهم لم تكن لتدرأ عنهم غائلة الجوع أكثر من شهر أو على الأكثر شهرين، وهكذا كثيرًا من مات منهم جوعًا وعريًا، وكثيرًا ما كنَّا نسمع الرِّجال والنِّساء والأطفال يتضوَّرون جوعًا، ويصرخون رحمةً أو نراهم يفتِّشون بين الأقذار، وفي زوايا الزّقاقات عن قشور البرتقال والترمس وما يخرج من السمسم بعد عصيره؛ ليسدّوا به جوعهم، وقد فتكت من جراء ذلك بكثير منهم الأمراض القتَّالة. وما كانت أفعال الخير والحسنات لتكفي عن صدّ هذه النَّازلة عن المساكين.

هذا واكن يُنتَظر نزول أشدّ الضَّربات في السَّنة الرابعة إذ لم يعد بين الأيدي شيء يقوم بالأولاد لولا أنَّ الله منَّ على البلاد بالتَّغيُّر الفجائيّ بسبب دخول البلاد الجيوش المحتلَّة في ١٨ أيلول سنة ١٩١٨، فضمّ شمل ما تفرَّق من أبناء حيفا، وانفرجت الأزمة، ونفض القوم عنهم غبار

المسكنة والخمول، ووجدت بينهم حركة نشلتهم من ضيقتهم، وأفرجت كربتهم.

أما احتلال حيفا فكان هكذا:

في ١٨ من شهر أيلول من سنة ١٩١٨، أُشيعَ في المدينة أنّ جيوش الحلفاء قامت بهجوم عامٍّ على كلّ الخطوط في الجبهة، ثمَّ عُرِفَ أن قد جرى احتلال درعا فسمخ فالعفّولة، وأخيرًا النّاصرة، وأرسل آلاي الجند الموجود في حيفا لتخليص هذه الأخيرة، وقد جرت بينه وبين الجيوش المحتلّة معركة في جهات جبال الرّينة، أسفرت عن هرب الجند التُّركيّ، ثمَّ رأى الأهلون نزوح الأتراك والألمان عمومًا بجميع معدّاتهم وذخرهم وسيّاراتهم إلى جهة عكّا بسرعة جعلت الجميع يتأكّدون من قرب الفرج.

ومساء يوم السَّبت، ليلة الأحد في ٢١-٢٢ من الشَّهر ذاته، عُقِدَت جلسة ضمَّة قائمقام البلدة، ورئيس بلديَّتها، ورؤساء دوائرها، ورؤساء الطَّوائف الرّوحانيِّين، وجرى تسليم المدينة إلى رئيس البلديَّة، وهذا قرَّر التَّسليم للأعداء إذ لا مقدرة على الوقوف أمام قوَّاتهم الآتية، ولكن حظرت المتصرفيَّة في عكّا على ولاة أمور حيفا هذا العمل، واضطرتهم إلى المدافعة إلى آخر نسمة من حياتهم (ليكون ما ما ظهر للألمان سَعَة من الوقت للهرب) ولم يكن في حيفا من حامية إلَّا بعض من أفراد الجندرمة رابضين في أقصى حدود المدينة إلى الشَّرق والغرب، ومدفعان؛ الواحد للطيَّارات في موقع البرج، والآخر على الكرمل بين أحراش الصنوبر (ولا يزال للآن في مركزه ولا يصلح لشيء) ثمّ سُمِعَ المدفعان يرسلان قذائفهما إلى الجهة

الشّرقيَّة ما بين النَّخل، وبقيا على هذه الحالة طول نهار الأحد، وسحابة اللَّيل، وصبيحة يوم الإثنين، ثمّ سكنا فجأةً.

وما كانت السَّاعة الثَّالثة بعد ظهر يوم الإثنين في ٢٣ أيلول حتَّى رُئِيَت الخيالة الهنديَّة تدخل المدينة من كلّ أطرافها من جهة رأس الكرمل ومن جهة الجبل، حيث أسكتوا المدفع وأسروا الجنديّ الموكل به، وخصوصًا من الجهة الشَّرقيَّة، وكان دخولهم بسرعة دبَّتِ الذُّعر في القلوب أوّلًا، ثمَّ لم يلبث أن خرج الأهلون إلى الشَّوارع للقائهم مصفِّقين ومرحّبين، والويل ساعتئذٍ لمن كان يُرى مرتديًا الملابسَ العسكريَّة التُّركيَّة، فما من رحمة له من الهنود الذين كانوا يقضون عليه بحرابهم اللَّامعة. والسَّبب في عملهم هذا هو ثورة دمائهم على أمير بينهم كبير لاقى حتفه بشظية قنبلة على أبواب المدينة.

ثمَّ تبع الخيالة الهنديَّة الإنجليز راكبو السيَّارات ذات العجلتين (الموتوسيكل) وبعدها سيَّارات الصَّليب الأحمر لنقل الجرحى والقتلى، ثمَّ سيَّارات القائد وأركان حربه، وما كانت السَّاعة السَّادسة حتَّى نُودِيَ في المدينة أنَّ القائد يرغب في قراءة منشور على الأهلين، فاجتمع في ساحة الجريمة أمام الجامع الكبير خلق كبير، وقرأ القائد منشوره بالنِّيابة عن قائد الجيوش العالم اللنبي، ممثل جلالة ملك إنجلترا.

وقد أُسِرَ في ذلك النَّهار وثاني يوم جميع رجال العسكريَّة، كالضُّبَّاط والقُوَّاد، ومن لهم علاقة بهم من الأتراك والألمان، وبعدها مرَّت جيوش الاحتلال كلُّها من نصف أسواق حيفا بمعدَّاتها وذخرها ووجهتها عكَّا،

فصـور وصيـدا وبـيروت، ثـمَّ سـادت السَّـكينة وسـعى كلٌّ وراء أشـغاله وأملـه عظيـم بـأنَّ المسـتقبل سـوف ينسـيه مـا جـرى مـن أيَّـام الحـرب، وأنَّ البـلاد لا محالـة سـائرة إلى التَّقـدُّم والرُّقـي والفـلاح بمسـاعدة الحلفـاء، فسـبحان مبـدّل الأحـوال، ومحقِّـق الظُّنـون وهـو عـلى كلّ شيء قديـر.

الكَرِمل

لا نحسـب تاريخنـا كامـلًا لـو أغفلنـا ذكـر الكرمـل، وهـو المجمـل حيفـا والـذي يكسـبها المنـاخ الطَّيِّـب والهـواء العليـل؛ فضـلًا عـن مناظـر تعـدّ مـن أبهـج مـا يمكـن أن ينـشرح لـه الصَّـدر ويرتـاح لـه الخاطـر.

فالكرمـل سلسـلة جبـال تـشرف مـن جهـة الشَّـمال الغـربيّ عـلى البحـر الـذي تأتيـه أمواجـه المتلاطمـة متكسِّرة عنـد سـفحه، ومـن جهـة الـشَّرق عـلى بعـد ٦ إلى ٨ كيلومـترات عـلى مـرج منبسـط تمتـدّ العـين فيـه عـلى قـدر مـا أُعطِيَـت مـن حـدَّة النَّظـر، وهـو مـرج ابـن عامـر الشَّـهير، ثـمَّ تلتـفّ إلى الجنـوب بطـل لا يقـلّ عـن ٢٤ كيلومـتراً حتَّـى ينتهـيَ إلى سـهول سـارونا المتصلـة بجبـال السَّـامرة.

أمَّـا عرضهـا فـتراوح بـين الخمسـة والثمانيـة كيلومـترات، وعلوّهـا لا يزيـد عـلى العمـوم عـن ٣٠٠ مـتراً، إنَّمـا يبلـغ في الوسـط ٥٤٠ مـتراً (قريـة عسـفيا على بعد ثـلاث سـاعات مشـيًا مـن حيفـا) تكسـوها كلّهـا بـلا اسـتثناء الخضرة والأشـجار وأحـراش السـنديان وتخترقهـا الوديـان الظَّليلـة التـي تؤنـس وحشـتها تغاريـد طيـور براهـا الخالـق فيهـا لتسـبيح اسـمه عـزَّ وجـلّ.

أمَّـا كلمـة الكرمـل فعبريَّـة الأصـل، معناهـا حديقـة أو جنينـة، وكثـيراً مـا استشـهد سـليمان الحكيـم في نشـيد إنشـاده وأنبيـاء الكتـاب المقـدَّس في نبوءاتهـم عنـد وصـف الجبـال والخصـب بالكرمـل وبرأسـه الدَّاخـل في البحـر واخـضراره الدَّائـم.

وذكـر الكتـاب المقـدَّس أنَّ يُقنعـام ملـك الكرمـل حـارب مـع الملـوك مجاوريـه يشـوع بـن نـون، ثـمّ جعـل الجبـل بعـد ذلـك حـدًّا فاصـلًا بـين أسـباط أشـير

إلى الشَّمال الشَّرقيّ، وزبولون ويساكر إلى الشّرق، ومنسي إلى الجنوب، أمَّا هو فبقي مستقلًّا معتبرًا أرضًا مقدَّسة.

وكان رجال الله منذ القدم يأتون مغاوره الكثيرة للانفراد في تنسُّكهم والابتعاد عن شرور النَّاس، وكانت جهة البحر أفضل المناسك لهم.

وممَّا زاد في شهرته إقامة النَّبيّ إيليا فيه مدَّة وجوده على الأرض، وظهور قوَّة الله في أعماله أمام كهنة البعل الذين أفحمهم كما يقول الكتاب يوم كان آحلب ملك إسرائيل ملتجئًا إلى الكرمل برجاله وخيله؛ هاربًا من القحط الذي حلَّ ببلاده لانحباس المطر عنها مدَّة ثلاث سنوات وستَّة أشهر لكثرة شروره. فنصب النَّبيّ إيليا محرقتين على أن تدعو كلّ فئة إلهًا لإرسال نيران تحرقها، فنادى كهنة البعل آلهتهم وصرخوا ورقصوا ولا من مجيب، وبقيت آلهتهم صمًّا عن سماع ندائهم، أمَّا النَّبيّ إيليا فقد استجاب الله صلاته، وهبطت نارٌ من السَّماء وأكلت المحرقة والحطب والحجارة والتُّراب، حتَّى لحست الماء الذي أمر إيليا أن يصبّ على المحرقة.

وهكذا أعلن الشَّعب انتصار إله إيليا، وذبح النَّبيّ ٤٥٠ كاهنًا من كهنة البعل على نهر قيشون (المقطع).

ثمَّ كما يقول الكتاب؛ قالَ إيليا لآحاب أن يعود إلى بلاده فالمطر قريب، وما هي إلَّا برهة حتَّى ظهرت سحابة صغيرة أوّلًا، ثمَّ اربدَّت السَّماء وهبَّت الرِّياح ونزل المطر.

وعلى الكرمل أيضًا جاءت المراة الشونمية إلى النَّبي الياشاع تلميذ إيليا، وطلبت إليه أن يردّ الحياة إلى ابنها ففعل هذا باسم الربّ.

وكان الوثنيُّون يعتبرون الجبل كمكان مقدّس، حتَّى أنَّ بعض المؤلّفين ذكره مكرسًا للإله جوبيتر، وذهب البعض الآخر إلى أنَّ الكرمل كان الإله بالنفس بعظمته وجلاله وجماله (الإله الكرمل).

وقد سجد فيه فسباسيانوس قائد جيوش الرُّومان المحاربة فلسطين سنة ٦٩ بعد المسيح قبل أن يسمَّى إمبراطورًا، وسأل الآلهة فيه عن مستقبله.

ثمَّ إنَّ الكرمل لفت أنظار المؤمنين المسيحيين منذ الأجيال المسيحيَّة الأولى، وجعلوا مغائره مناسك لعبادة الله، وشادوا بعض المعابد فيه، وقد عانوا من الاضطهاد أهوالًا على زمن دوميسيان وتراجان وكلود ملوك الرُّومان، وزارته بعد ذلك القدّيسة هيلانة في إمبراطوريَّة ابنها قسطنطين الكبير، وشادت عليه كنيسة في أوائل الجيل الرَّابع بعد المسيح، ولم تلبث أن لحق هذه الكنيسة الاضطهاد والدَّمار، وبقيت المعابد تشيَّد ثم تُهدَم ويُستَشهَد ساكنوها ويُعاد بناؤها ودمارها، ولا تزال آثارها القديمة للآن ظاهرة في وادي السيّاح، وهو الوادي الظَّليل الموجود وراء الجبل إلى الجنوب، ويعرفه الحيفاويُّون باسم (السيَّاح) وتجري فيه مياه عين أم الفرج وعين السيّاح.

وكذلك يذكر التّقليدان المغارة المعروفة بمدرسة النَّبيّ إيليا، وهي اليوم الخضر الكائنة عند سفح الكرمل على مقربة من شاطئ البحر، أوت ليلة واحدة العائلة المقدّسة برجوعها من مصر إلى النَّاصرة، سالكةً الشَّاطئ.

في أواخر القرن الثّاني عشر، ضرب صلاح الدّين الأيوبي خيامه عليها.

وفي سنة ١٦٣٠ جاء راهب مساعدًا من قداسة بابا رومية، وطلب إلى حاكم مدينة حيفا المسمى (طارابي) أن يسمح له بتشييد مناسك له ولرهبانه في الكرمل، فأعطاه الحاكم الأمر الذي نثبته بحروفه نقلًا عن مخطوطات الدَّير، وحتَّى يقف القارئ الكريم على لغة المدينة في ذلك الوقت، قال:

«حضر إلى عندنا الأب الراهب بروسبرا من روح القدس الكرملي الحافي المتكلم على طائفة الكراملة القاطنين في مدينة حلب باجازت بابا رومية وكبيره حتَّى انهم يسكنو في البلاد بغير نكد ولا تعرض لهم بوجه من الوجوه من جنس الرهبان القاطنين في المحل المذكورة ولا احد يقف لهم في طريق من امارا وشابصة وغير من العربان وأيضًا انهم يعمرو مغارة الخضر الزغيره ويعمل بيوت وبستان ومهما يحتاج اليه وكذلك في رأس الجبل مقام مهر الياس وكذلك في المينا يعمر ما يحتاج اليه من المساكن واعطيناه دستور في ذلك بموجب ذلك لا احد يعترض لهم في ذلك بوجه من الوجوه لا من اهل البلد ولا من غيرهم من العربان والفلاحين وكل من يعترض لهم لا يلوم الَّا نفسه والحذر من المخالفة في ذلك وذلك جرى في أواخر شهر جمادى الأول سنة واحد وأربعين بعد الألف»

(الختم)

فعمل الرَّاهب بالأمر ولكن لم يلبث أن اضطُّهِدَ مع رجاله، ثمّ شيَّد غيره ديرًا جديدًا عند رأس الكرمل سنة ١٧٦٧ ومرَّ به محمد أبو الدّهاب، قائد جيوش علي بك عزيز مصر، وذبح رهبانة.

وسنة ١٧٩٩ جعله نابليون مأوى لمرضى جنوده وقد تركهم فيه بعد ارتداده عن عكا ورجوعه إلى مصر، وذبحوا كما أنّ الدَّير حُرِق.

وسنة ١٨٢١ أكمل عبد الله باشا حاكم عكا خرابه مدَّعيًا أنَّ من فيه كانوا يسهلون طرق المواصلة مع اليونان، وشاد قصرًا له في أقصى حدّ من رأس الكرمل، وهو لا يزال إلى اليوم معروفًا باسم (القصر) يعلوه الفنار.

ثمَّ سنة ١٨٢٧ وُضِعَ أوَّل حجر للدَّير الحالي، وأُكمِلَ بناؤه بعد ذلك، وهو اليوم أشبه الأشياء بقلعة حصينة لسمك جدرانه ومناعة أبوابه وشكل هندسته المربَّعة (واجهته تقيس ٦١ مترًا وجانبه ٣٥) وفي وسطه الكنيسة التي يبذل الكرمليُّون بفضل المحسنين غاية جهدهم لِأَنْ تكون من أجمل الكنائس، وفي داخلها تحت الهيكل الذي يعلوه تمثال سيدة الكرمل العجائبية مغارة بعمق ثلاثة أمتار، وعرض خمسة، يُنزَل إليها بخمس درجات، وعلى هيكلها تمثال النَّبي إيليا من خشب، وهي المغارة التي يؤكدون أنَّ النبيَّ كان يتردَّد إليها بوجوده على الأرض، يأتيها كلّ سنة للزِّيارة ألوفٌ من المسيحيِّين من أقطار العالم، فضلًا عن سكَّان البلاد على اختلاف مللهم؛ الذين يقيمون على الخصوص يوم ٢٠ تموز من كلّ سنة أبهج عيد للنَّبيّ.

أمَّـا سـطح الدَّيـر فحـدِّث عـن بديـع المناظـر التـي تمتـدّ أمامـه ولا حـرج، ولا أبهـج إلى الإنسـان مـن الوقـوف وقتًـا عليـه محدِّقًـا بالأفـق مـن الجهـات الأربـع وكاشـفًا بعينـه المجـرّدة أو بنظّارتـه إلى الجنـوب خرائـب عتليـت والطنطـورة والسَّـاحل إلى جهـات مدينـة يافـا ثـمّ جبـال السَّـامرة، وبعدهـا إلى الـشَّرق جبـال الجليـل الواصلـة إلى جبـال حرمـون، ولبنـان، وتحتـه مدينـة حيفـا بحركتهـا التِّجاريَّـة، وأمامـه عـكَّا بعظمـة أسـوارها، بعدهـا سلسـلة الجبـال الواصلـة إلى صـور.

والدَّيـر غنـيّ بمكتبتـه الحاويـة الأسـفار الثَّمينـة، وكذلـك بعادياتـه. وأمـام الدَّيـر يوجـد في جنينـة صغـيرة نَصْـبٌ عـلى شـكل أهـرام قائـم فـوق ضريـح يضـمّ عظـام جنـود نابليـون، وقـد نبـش الأتـراك والألمـان عظـامَ هـذا القـبر في الحـرب الكـبرى، بعـد أن أُخـلِيَ الدَّيـر مـن رهبانـه.

وفي السَّـاحة المنبسـطة بـين الدَّيـر والقـصر حيـث الفنـار، توجـد قاعـدة مـن الحجـر الأبيـض بديعـة البنـاء، يعلوهـا عمـود مـن الحجـر، وفي رأسـه تمثـال السـيِّدة، وهـو هديَّـة مقدّمـة مـن زوار الشـبلي في أمـيركا.

وعـلى الكرمـل توجـد محلَّـة حيفـا المعروفـة بـ«السِّـت» كـما أنَّـه تحتهـا، وفي وسـط الجبـل، يوجـد قـبر البـاب وعبـد البهـاء عبّـاس زعيمَـي الدِّيانـة البهائيَّة، وقـد سـبق لنـا الـكلام في غـير هـذا المـكان مـن التَّاريـخ.

وعـلى بعـد خمـس سـاعاتٍ مشـيًا، يوجـد ديـر المحرقـة، مشرفًـا عـلى مـرج ابـن عامـر، ونهـر المقطـع، وهـو مـن أعـلى نقـط الكرمـل (٥١٥ مـترًا) وقـد شُـيِّدَ هنـاك تـذكار لأعجوبـة النَّبـيّ إيليـا وذبحـه كهنـة البعـل.

قـرى الكرمـل وضِيَعـه في وقتنـا الحـاضر كثـيرة، وعمل سـكّانها في فلاحـة الأرض وزيـت الزّيتـون، وأهـمّ هـذه القـرى وأغناهـا قريـة عسـفيا (أعـلى نقطـة في الكرمـل ٥٤٠ مـترًا) وعـدد سـكانها ٦٨٠، والدّاليـة، وعـدد سـكانها ٨١٨، وكلّهـم دروز إلَّا في الأولى منهـما، فيوجـد قـدر ٤٠ نفسًـا مـن المسـيحيين، وقـد اشـتُهِرَتا بجـودة صناعـة الجـبن. أمَّـا سـكان باقـي القـرى، فمسـلمون عـلى الإطـلاق.

أمَّـا المواصـلات بـين هـذه القـرى فصعبـة جـدًّا، ولا طريـق معبَّـدة بينهـا في الوقـت الحـاضر أبـدًا، ولعـلَّ الحكومـة تنظـر إليهـا في المسـتقبل بعـين الاهتـمام، وتسـهِّل الطُّـرق للمواصلـة، فتـزداد بذلـك اليـد العاملـة في الكرمـل؛ فضـلًا عـن مـواردَ كثـيرةٍ ينتفـع منهـا الأهلـون والحكومـة معًـا. كـما أنَّنـا نلفت في ختـام هـذا التَّاريـخ أنظـار أغنيائنـا إلى مناخـه الطَّيِّـب، فالاصطيـاف فيـه يجعـل للبـلاد مـواردَ كثـيرًا مـا أحيـت أمـمًا كبـيرةً.

انتهى

لقد مثّل النشر عبر العصور أداةً للتمدّد والاحتواء، وهو بذلك استطاع أن يمتلك قُدرة استثنائية على التجدّد والتنوّع في حركته وتحوّلاته التقنية، بدءًا من الإيماءة ومرورًا بالنقش ثم الطباعة على الورق، ليُشكّل بذلك ضوءًا مُتعدّد الطبقات، يَقبضُ بوميضه على أحاسيسنا المتغيّرة بفعل الزّمن.

إن تمدّدًا على هذا النّحو، يمكنه أن يقلّص المسافة، وأن يُجسّد حاجتنا إلى التنقّل عبر المحطات العابرة للتاريخ، بل يُثري تجاربنا في تشكيل القوالب الحيّة لذاكرة لا تغيب.

فتلك التحوّلات التي أنتجتها التكنولوجيا لم تأتِ صدفةً، إنها انبثاقُنا المبتكر نحو خلق الترابط مع الآخر في هذا العالم الوسيع.

ضمن تلك الرؤية، صمّمت وزارة الثقافة مشروعها نحو النشر الرقمي ليقينها بضرورة توسيع نطاق النّشر وإتاحته أمام أكبر عدد ممكن من الباحثين والدارسين والقُرّاء.

وزير الثقافة
عماد عبدالله حمدان

